IAP 20139

للأديب الفاضل الأستاذ الكبير
البير اديب . مع اصدقه التحيه
وخالص الود والتقدير لسيادتكم الكريم
المؤلف

لجنة النشر للجامعيين

هتاف الجماهير

892.78
G4133h
C.1

تأليف

أمين يوسف غراب

يطلب من

مكتبة مصر ومطبعتها
٦٣ شارع الفجالة مصر

مطبعة مكتبة مصر

لجنة النشر للجامعيين (لجنة الإنتاج الفنى)

أحمـــــس	عبد الحميد جوده السحار	مايو سنة ١٩٤٣
راديوبيـــس	نجيب محفوظ عبد العزيز	يولية سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغـفارى	عبد الحميد جوده السحار	سبتمبر سنة ١٩٤٣
قنـــابل	محمود تيمـور بك	نوفمبر سنة ١٩٤٣
أخناتون ونفرتيتى	على أحمـد باكثير	ديسمبر سنة ١٩٤٣
ثلاثة رجال وامرأة	ابرهيم عبد القادر المازنى	ينـاير سنة ١٩٤٤
أقاصـــيص	لنخبـة من الأساتذة	فبراير سنة ١٩٤٤
سلامـة القس	على أحمد باكثير	مارس سنة ١٩٤٤
ويك عنـــتر	عادل كامـــل	ابريل سنة ١٩٤٤
بلال مؤذن الرسول	عبد الحميد جوده السحار	مايو سنة ١٩٤٤
ع الماشى	ابرهيم عبد القادر المازنى	يونية سنة ١٩٤٤
حديقة أبى العـلاء	كامـــل كيلانى	يولية سنة ١٩٤٤
كفاح طيبة	نجيب محفوظ عبد العزيز	أغسطس سنة ١٩٤٤
خريف إمـرأة	إبراهـــيم المصرى	سبتمبر سنة ١٩٤٤
قصر الهـودج	على أحمـد باكثير	« سنة ١٩٤٤
عشاق العـرب	كامل محمد عجلان	أكتوبر سنة ١٩٤٤
ملـيم الأكبر	غادل كامـــل	نوفمبر سنة ١٩٤٤
فى الوظيـفة	عبد الحميد جوده السحار	ديسمبر سنة ١٩٤٤
محمد رسول الله	مولاى محمـد على	ينـاير سنة ١٩٤٥
عطر ودخان	محمـود تيمور بك	فبراير سنة ١٩٤٥
والإســـلاماه	على أحمد باكثير	مارس سنة ١٩٤٥
الأطياف الأربعـة	للإخوة الأربعـة	ابريل سنة ١٩٤٥

مرايا النـــاس	السيدة وداد سكاكيني	مايو سنة	١٩٤٥
الشيء الصـــغير	الفـــونس دودية	مايو سنة	١٩٤٥
ملك من شعاع	عادل كامـــــل	يونية سنة	١٩٤٥
الفرعون الموعود	علي أحمـــد باكثير	يونيه سنة	١٩٤٥
إبرهـــيم الكاتب	ابرهيم عبد القادر المازني	يوليه سنة	١٩٤٥
هتـــاف الجماهير	أمين يوســـف غراب	يوليه سنة	١٩٤٥
مسرحيـــة الأب	أوجست سترندبرج	أغسطس سنة	١٩٤٥

تحت الطبع :

الكأس السابعة	صـــــلاح ذهني
علم النفس التحليلي	محمود محمـــــــود
الدهاة الثـــلاثة	عمـــــر أبو النصر
خان الخليلي	نجيب محفـــــوظ
سعد بن أبي وقاص	عبد الحميد جوده السحار
سر الحاكم بأمر الله	علي أحمد باكثير

إن اليوم الذى تتعلم فيه الهتاف
لهو اليوم الذى لا تهتف بعده أبدا.

والساعة التى نعرف فيها من هم
الذين نهتف لهم، لهى الساعة التى
تتحطم فيها الأصنام...

أمين يوسف غراب

فهرست

أفراح السماء

السـيد

الثوب المهلهل

صفقة رابحـة

طريق الدنس

الأسـتاذة

الفطائر الثلاث

الظامئـة

خواتم فى أصابعه

عواء الكلاب

مفاتيح الأقفال

لفائف تحترق

رجل مسكين

البلبل والحمامات السبع

هتاف الجماهير

أفراح السماء

كان الجوع هو الشيء الوحيد الذى يرهقها ، وهى تسير فى الطريق حاملة على ساقيها الهزيلتين جسدها المنهوك الخائر من فرط الإعياء. راح يطاردها طوال النهار وهى تتهرب منه ؛ وكان كلما لحقها ، ورنت إليه مرغمة أو فكرت فيه على الرغم منها ، غافلها وغرس أنيابه الحادة فى أحشائها ، ثم يروح يضغط بفكيه القويين على تلك الأحشاء الرخوة اللينة حتى يكاد يمزقها تمزيقاً ، أو يلصقها بعضها ببعض لصقاً ، فلا يسعها إلا أن تتأوه تأوهاً مكتوماً ، وتواصل سيرها مستسلمة ، وإن بدا لها أن تثور على هذا العاتى الذى لا يجيد إلا الأذى المميت ، ثارت عليه ، ولكن بدمعة حبيسة تنطلق من عينها المقرورة .

وظلت كذلك تسير وتسير على هذا النحو من الضنى المرير ، والأذى الذى لا يحتمل ، إلى أن انقضى النهار ، وأقبل ليل الشتاء القاسى ، وأقبل معه ذلك الصقيع الذى لا يرحم ، والذى غمرت موجات برودته الكون واكتنفت كل ما فيه ، ثم راح رذاذه الثلجى الهامى الذى لا يرى من فرط ضآلته وحدته ، يسقط على تعساء الأحياء فيكاد يخترم أجسامهم الغضة اللينة التى قدر لها العرى فى العراء . وأحست وهى تتلصص الخطى فى الطريق بلفحات البرد تغمر جسدها المرتعش وتلهبه إلهاباً ، ثم تتركه لحظة تعود على أثرها بسرعة البرق تلفح ما بدا منه عارياً فتصهره وتبدل لونه . فلا يسعها

بإزاء ثورة الطبيعة عليها ، إلا أن تمد ذراعين أضناهما الهزال وأمضهما السؤال ؛ وتلم ، مكفكفة مصطكة ، أطراف ثوبها لتقى به الجسد المنهوك ، فلا تجد إلا بقايا من ثوب قديم بال قطعت أوصاله الوحدة ، وعصفت به ريح الشقاء ، فغدا كخيوط العناكب تخلقها الشمس ، ويبيدها اللمس .

ومع ذلك تروح تعمل بيديها فى بقاياه ، وكلما حجبت موضعاً من جسدها ضاقت رقعة الثوب عن موضع عز عليها أن يرى ، فتتراخى أناملها ، وتواصل نقل خطاها المترنحة ، وتروح تسير إلى غاية هى نفسها تجهلها ، ولا تفكر فيها إلا كلما لاح لها خيال بقية من سيجارة ملقاة فى الطريق ، فتنقض عليها وتتناولها ، وهنا تحس وتعرف غايتها من السير فى الطرقات .

واستهواها منظر فى الطريق رأته وهى تسير . رأته جميلا أخاذاً ، فخلا لها أن تقف حياله حيناً تتأمله بعينيها مرة ، وبحواسها أخرى ، تلك الحواس التى ألهبتها رائحة الزيت المحروق التى تسربت إلى خياشيمها من المقلى الكبير الموضوع على النار . رأت الحاج برعى صاحب البطن المنتفخ ، الذى كشف عن ذراعيه المترهلتين ، يُخرج من المقلى بالمصفاة أقراص (الطعمية) ويضعها فى طبق منبسط كبير .

وشاقها المنظر ، منظر أقراص الطعمية بلونها الذهبى الأخاذ ، ورائحتها الحلوة النفاذة ، فوقفت أمامه تتلمظ ، وكل حواسها مسلطة

على عينى الرجل ، وكل غايتها أن يراها وأن يحس بما يجول فى خاطرها ، فيلقى إليها بواحدة. وطال بها الوقوف، وطال بها التأمل ، وطال بها الشوق أيضاً ففكرت :

«إذا تقدمتْ منه وسألته واحدة أيجيب سؤالها أم يردها خائبة؟ وإذا ردها فماذا تفعل؟ ستسير فى طريقها ! ولكنها ستحرم من هذا الذى يسيل لعابها عليه ، ويتحرق قلبها إليه .

ولكن لماذا يردها ؟! ولماذا لا يعطيها واحدة ؟ ! بل ولماذا لايجعل من بين هاتيك الأقراص التى تكاد تبلغ الألف عدا خمسة أو عشرة لأمثالها .... للسائلين المحرومين ... للمعوزين المحتاجين ... لهؤلاء الذين تدمى قرصات الجوع قلوبهم ، وأولئك الذين يحرق أذى الحرمان نفوسهم .

ولكن من يدرى ربما يكون كذلك . ربما يكون فى صدره هذا الذى ترينه عريضاً بقية من حنان . وفى قلبه هذا الذى ترينه كبيراً بقية من إشفاق ، ومع ذلك جربى ... تقدمى »

ونقلت قدماً وخطت خطوة، ولكنها عادت فأرجعتها فى الحال خشية أن ينهرها أو يركلها، شأنه مع البنات الضالات اللائى اعتدن أن يعرجن عليه ، أو ينبشن عن رزقهن فى القمامة التى يلقى بها أمام حانوته ، وبذلك ينقطع خيط آمالها ، وتحرم حتى من لذة التفكير فى أمل تعيش عليه لحظات .

ووقفت حيناً يدفع الجوع قدمها دفعاً لتتقدم، ويردها الخوف

رداً فلا تنقلها قيد أنملة . وكلما مر بها عابر وابتاع شيئاً من تلك الأقراص الذهبية الثمينة حولت دفة آمالها ونظراتها إليه، وظنت به خيراً ، حتى وهو ينصرف ويبتعد عنها تروح تنظر إليه ، وتتعلق نظراتها بأذياله... من يدرى، فربما تأخذه الشفقة فيعود إليها ويعطيها واحدة، ولكنه يبتعد ويبتعد دون أن يعود ، ويأتى غيره وينصرف، ويأتى عشرات الناس وينصرفون دون أن يراها أحد .

أف من هؤلاء الأغنياء يا فاطمة . ما أقسى قلوبهم . . . إنهم يمرون بك دون أن يروك حتى رؤيا العين ، واست أنت عنهم بمحتجبة، وليست عيونهم رمضاء ولا هى كليلة النواظر . فلماذا هم كذلك ؟ لماذا لا يرون شجرة الصحراء فى أوج الظهيرة ، ويرون الورقة الساقطة فى عتمة الليل ؟. وهمت أن تعيد إلى مخيلتها قصة ذلك الرجل الذى كان يأكل واقتربت منه، فصفعها من أجل لقمة، ثم التقت به تحت جنح الظلام ، ورأته يعرض على امرأة كل ما فى جعبته لقاء ليله .

همت أن تعيد إلى مخيلتها هذه القصة ، ولكن رائحة الزيت المحروق عادت من جديد تداعب خياشيمها ، وتناوش حواسها ، فتنبهت وبعثت بطرفها كله مرة أخرى إلى عينى الحاج برعى وتعلقت بهما ، ولكنها لم تفكر هذه المرة كثيراً ، ولم تصبر طويلا ، بل جمعت أشعاث عزمها المبعثر ، واندفعت مرة واحدة ناحية الرجل ، ومن ثم بسطت يداً مرتعشة ، ومدت وجهاً شاحباً

شدته نظراتها الحيرى المتعلقة بوجهه ، وراحت تنتظر فى أمل ، وترجو فى صمت ظاهر ، أن يمن الرجل عليها ولو بواحدة . وكانت كلما مديده ناحية الطبق الذى فيه حياتها ، ظنته سيحقق الرجاء ، ويجيب الدعاء ، فتتشوف نظراتها ، وتتلهف أنفاسها ، وترتسم على ثغرها ابتسامة جذلة حلوة تنير وجهها الحزين ، كما يبتسم القمر من خلف السحاب فينير الغمامة التى تحجبه .

ولكن ذلك كله لم يكن ليدوم أكثر من لحظات تخبو على أثرها نظراتها ، وتتلاشى ابتساماتها ، عند ما ترى يد الرجل تمتد إلى يد غير يدها ، وتبصر عيناه وجها غير وجهها .

ولما طال بها الانتظار ظنته لم يرها ، فتقدمت منه خطوات حتى دانته ، ومن ثم شدت على شفتيها المقرورتين حتى انفرجتا وتمتمت : «لقمة» .

وكان الرجل فظاً غليظ القلب من أولئك الذين لا يعرفون من إنسانيتهم غير اسمها ، فهوى بيده الغليظة على رأسها الصغير المحموم ، فأذهلتها الصفعة ، وهوى رأسها على صدرها الخافق المكدود ، وصرخت صرخة قاسية ، إلا أنها صرخة مكتومة لم تسمعها حتى أذناها . . . ومع ذلك لم تغضب ، ولم تثر ، ولم تنصرف أيضاً . . . . ولا هى راحت تركض على غير وعى ، أو تولول على غير هدى . ذلك لأن الأذى ليس جديداً عليها ، فقد علمها التسول كيف تتلقى اللطمات ، كما علمها الجوع كيف تتحمل الإساءات . وكان ما فعلته أن ابتعدت

قليلا حتى احتواها الظلام ، فجففت دموعها ، وأصلحت أسمالها . وتحسست الكوز الذى تجمع فيه أعقاب السجائر ، فوجدته فى مكانه من يدها ، فاطمأنت وانطلقت إلى الرصيف المقابل وجلست لعل نفسها تهدأ .

وأحست بعد أن جلست قليلا بثقل رأسها المتعب ، فحملته على فخذيها العاريتين المرتجفتين ، وأفسحت بجواره مكاناً لذراعها المرتعشة التى بسطتها فى الظلام الحالك تسائل أشباحه . ومن ثم راحت تنتظر ، بيد أنها لم تمكث طويلا على هذا الوضع ، فما كادت تمر بها لحظات قصار حتى رأت شبحاً يدنو منها فى الظلام ، ويضع يده عليها ، ويربت على كتفيها فى حنان حلو ، سرت عذوبته فى جسدها كله فهدهده وأعاد إليه الحياة ، فرفعت هدبيها ، ورنت إرناءة مكسورة ، فإذا بها أمام شاب وسيم الطلعة وضاء الجبين ، تلوح على محياه الضاحك مخايل النبل والطهر والكرم ، فنظرت إليه وتأملته وتمتمت :

— جائعة !؟

فمد يده واستنهضها ، فانتصبت واقفة ، فتمادها ، وانصرفت تتبعه كما تتبع الشاة راعيها ، حتى دخل بها قصراً شامخاً من تلك القصور المقامة على الشاطىء كالعرائس ، تحاكى خمائلها فراديس الجنان . وما أن اجتازت بهوه الرحب الفسيح حتى تناولتها أيدى الجوارى الحسان اللاتى ذهبن بها إلى الحمام ، ولم يمكثن غير قليل حتى عدن بها مشرقة بسامة ، ترفل فى ثوب فضفاض من الحرير الأبيض يشبه فى

نعومته وليونته بشرة جسدها المتموج الذى راح بريقه يتراءى مضيئاً من خلال الثوب، كما يتراءى النور ساطعاً من زجاجة المصباح.

وأدخلت غرفة رحبة فسيحة الجنبات، فرشت بالدمقس، وتصدرتها مرآة كبيرة ذات أجنحة مبسوطة، وجوانب ممدودة، صفت عليها زجاجات العطر المصفى، وعلب المساحيق المختلفة. وقامت جارية عن يمينها وأخرى عن شمالها، وراحتا تدهنانها بسائل العطر، وتزيناتها بألوان المساحيق، حتى اكتملت زينتها، وتألقت نضارتها، وغدت كالوردة البكر عندما يطارحها الهوى النسيم الهفهاف، ويبثها الجوى فجر الربيع الهيمان، فتستيقظ نشوى تداعب الصبح الجميل.

ثم جيء لها بعد ذلك بثوب آخر من الحرير الخالص، ما إن ارتدته وانساب على جسدها حتى وضحت معالمه، ولاحت أماكن البروز فيه عنيفة مشبوبة، كما بدت مواطن انخفاضاته سكرى مترنحة. ثم تقدمت إحدى الجوارى وعقصت لها شعرها الفاحم من الأمام، ثم تركته من الخلف يتدلى على كتفيها فى تناثر وإهمال محبب.

ولما تم تجملها وكملت زينتها، أقبلت ثلاث بنات فى السابعة من عمرهن، وتقدمن منها وركعن أمامها ولثمن أطراف ثوبها؛ ذهبت اثنتان ثم حملتا طرفى الثوب، وسارت الثالثة أمامها تحمل على راحتيها طاستين من فضة، انطلقت منهما رائحة المسك تعبق فى أرجاء المكان، وتعقد على رأسها عمامة بيضاء، ثم انطلقن بها حتى أقبلن

على باب كبير ما إن وقفن أمامه حتى رفعت أسجافه الوردية ، وفتح على بهو آخر فسيح الأرجاء كل ما فيه أبيض كالعروس . فرشت أرضه بأزهار النرجس ، ورصعت جوانبه بأزهار الياسمين ، ووقفت على جانبيه فتيات شبه عاريات كأنهن فى جمالهن وطهرهن الحور العين ، تحمل كل واحدة فى يدها مشعلا أضاء ما حوله حتى غدا المكان كقطعة من جسد الشمس إذ راحت تتلألأ فيه جسومهن البضة العارية ، وتبرق بريق النجوم على صفحة اليم القانى .

ولما تخطت عتبة البهو تتقدمها طالقة البخور الطاهر طهر ذيلها المحمول ، ركعن جميعاً أمامها يردن نشيداً عذباً كأنه لحن السماء ، ثم وقفن منحنيات وهن يرتلن اللحن ، وابتدأن يرقصن رقصات ملائكية على نغم الأرغن الساحر الأخاذ ، وأقبلت على مكان كأنه عرش من الذهب الخالص أقيم فى نهاية البهو ، وقد جلس عليه ذلك الفتى الذى قادها إلى القصر .

رأته مثلها يرفل فى ثياب ناصعة البياض كثيابها التى كانت تحاكى رقة الياسمين الذى تخطر عليه ، ولما دنت منه انتصب واقفاً وحياها بقبلة فى جبينها ، خضبت موسيقاها خدود الغوانى اللائى يرقصن ويرتلن النشيد . ثم أجلسها بجواره بين أنغام الموسيقى التى انبعثت كأغاريد الطير . وتبدلت الأضواء بغتة بأخرى ذات لون يميل إلى الزرقة ، والفتيات بغيرهن أقبلن عاريات وقد طرحت كل واحدة شعرها الكستنائى اللامع من الخلف على

ظهرها الأبيض المتبلور فكساه . وقد أقبلن يخطرن فى حياء وخطو منظم يوقعنه على أنغام الموسيقى، ويحملن على أكفهن أطباقاً من ذهب وأخرى من فضة ملأى بشتى ألوان الطعام الذى لم تألفه فى دنياها أبداً ، ولما انتظمن أمامها أخذت كل واحدة تتقدم منها على حدة، وتنحنى أمامها، ثم تمد لها ذراعيها المتبلورتين فتتناول من أطايب الطعام ما تشتهى . فلما أكلت وامتلأت معدتها رنت إلى صاحبها جذلة مبتسمة ، فرنا إليها مفترا عن ثغر شبيه باللؤلؤ المنضود وقال :

— أشبعتِ ؟

فقالت وقد انتصبت ضاحكة، ثم انثنت خجلة، ثم أقبلت طيعة :

— إنك ملك كريم !

فقال وهو يفتح لها ذراعيه ويقدم إليها قلبه :

— إننى خادمك الأمين .

فرنت إليه طويلا ، ثم ردت الطرف منكسرة الهدب ، مسبلة العينين . .

وعلى حين بغتة صدحت الموسيقى بلحن جديد خضب وجنتيها، وهى تتلاشى فى أحضانه ، وتسبح معه فى قبلة عميقة .

* * *

وفى الصباح ، بينا كان الحاج برعى مقبلا على حانوته مع الفجر، يسعل سعالا مصدوراً، ويلقى بصقاته ذات اليمين وذات الشمال، رأى

فاطمة ما زالت فى مكانها من الرصيف كما غادرها منذ أول الليل ، حاملة رأسها الثقيل المتعب على فخذيها العاريتين المقرورتين ، وقد أفسحت بجواره مكاناً لذراعها الهزيلة المرتعشة التى بسطتها فى الظلام تسائل أشباحه ، فأخذته الشفقة ، وبعد أن فكر قليلا أراد أن يكفر عن فعلته ، فناداها ولكنها لم تجب ، فعاود النداء ولكنها كانت جثة هامدة :

لقد كانت روحها هانئة فى رياض السماء . . .

أما جسدها فكان جيفة ملقاة فى الأرض . . .

السيد

لحق به الليل وهو فى طريقه إلى القرية، يسير على مهل مقروراً ينتفض، يحمل جسده المنهوك الخائر حيناً على ساقين هزيلتين لا يكاد يعرف لهما لوناً من فرط ما ألم بهما من هزال، وحيناً على عصا من السنط ضخمة طويلة هى كل ما ادخر فى دنياه، وكل ماواساه فى شيخوخته المريرة القاسية التى عذرها فى مرارتها وقساوتها، وفى حملها هذا الثقيل الممض الذى ألقت به على كاهله دون رحمة أو شفقة. عذرها فى ذلك أنها لم تباغته على غير انتظار، ولم تفجعه فى قواه وتحيله إلى شبه آدمى عفواً، بل مهدت لمقدمها بستة وثمانين عاماً قضاها فى القريه ينبش بيديه عن رزقه فى الحقل كما تنبش الدجاجة عن رزقها فى الأرض.

ولما أنهكه السير وأحس بالجوع يتآمر وشيخوخته على قواه المكدودة، مد أنامله المترهلة ذات الأظافر الطويلة المعوجة، وفتح بها عينيه كعادته كلما أراد أن يرى، ومد بصره القصير إلى الأفق العريض المترامى، ولكنه لما لم ير شيئاً حتى ولا موضع قدميه، عرف أن الليل قد لحق به، كما عرف أن له سبع ساعات يسير على قدميه فى طريق وعرشائك لا يستقيم إلا ليلتوى، ولا يلتوى إلا ليساير شاطىء الترعة المنسابه فى المزارع، وهنا توقف عن السير، وراح يتلفت حوله، وكلما همت قواه أن تخونه وأحس أنه سيسقط، كان يدفع عن جسده هذه الخيانة بأن يحمل صدره المكدود فوق

ذراعيه على العصا ويظل كذلك حيناً ، ولما لم يجد فى نفسه قوة على متابعة السير ، تحسس عصاه وجانب الطريق وشارف الترعة بحيث يستطيع أن يعب من مائها إذا أراد . واطمأن إلى وقفته فتذكر أن فى جيبه كسرة من الخبز ، فلمسها بأنامله المرتعشة ، فإذا بها خشنة جافة لا يقوى على قضمها بشفتيه المتهدلتين اللتين استعاض بهما عن أسنانه المفقودة ، وكانت نفسه قد عافت الخبز الأسود المبتل فى الماء البارد ، فأعادها ثانية تهتز بين أنامله المرتعشة . ودسها فى جيبه وهو يهمهم بعبارات غير مفهومة أو مسموعة . وهم أن يخرج يده ، ولكنه شعر بأنامله المقرورة تصطدم بجسم صلب فى جيبه ، ما أن تحسسه وتعرف عليه حتى اربدت ملامحه ، وتقلصت أساريره ، وبرقت عيناه بريقاً مرعباً لو أبصره عابر لارتعدت منه فرائصه وأوجس خيفه .

وأحس على الأثر بشىء يشبه الحمى يخدر أعصابه ، ويلهب جوارحه ويحيلها إلى شبه رماد ، فرجع بظهره إلى الوراء ، واستند إلى جذع شجرة كبير ألقى به القدر خلف ظهره على حافة الترعة . ومن ثم أقفل عينيه ، واستسلم إلى نعاس مضطرب متقطع .

بيد أنه لم يلبث طويلا فى إغفاءته هذه ، حتى رأى خياله يرجع به إلى شهر مضى ، إلى اللحظة التى سمع فيها ذلك النبأ السار الذى جدد آماله ، وبدد آلامه ، وجعله يستبشر بالخير العميم .. فقد سمع عن طريق الصدفة مروان — عامل تليفون القرية —

يقرأ فى « الجرنال » نبأ اجتماع لجنة الاستقبال فى المدينة ، لتضع برنامج زيارة الباشا إليها، تلك الزيارة التى تنتظرها المدينة بصبر نافد، وقلب واجف ، وفؤاد قد برحه الشوق تبريحاً . .

« إذن فالباشا بنفسه سيزور المدينة يادرويش .. وإذن يمكنك أن تراه . يمكنك أن تجلس إليه . وتبثه شكواك .. يمكنك أكثر من ذلك . . يمكنك أن تطبع على جبينه قبلتك الخالصة التى كثيراً ماطبعتها على شفتيه وهو طفل يلعب فى حراستك ، ويلهو بين ذراعيك حتى ينام على صدرك هذا المكدود الممروض فتحمله إلى مخدعه الذى تظل قائماً على بابه حتى الصباح ، فتعد له « الفيتون » وتذهب به إلى المدرسة فى المدينة ، والتى كثيراً ما طبعتها على جبينه وهو يافع ينساب بجوارك فى المزارع ، ويعدو وأنت تلهث خلفه إعياء ، تحمل له حيناً بندقيته ، وحيناً مظلته ، وأحياناً سره الذى كان لا يأتمن عليه سواك . .

ولكن أكنت تطمع فى هذه الزيارة يادرويش ؟ . . أكنت تطمع فى أنك ستلقاه بعد أن فرقت النظم بينكما ، فذهب هو فى طريق السادة يشكو التخمة ، وذهبت أنت فى طريق العبيد تنام على بطنك كلما عضك الجوع . . أليس غاية ما كانت تصبو إليه نفسك أن يبلغه صوتك فيرد إليك رمقك ، وإلا لما كتبت له الرسالة تلو الرسالة غير عابىء بما تلقى من أذى ، وبما تحتمل من هوان ، وبما تتجرع من غصص التسول وأنت تستجدى الناس ثمن طابع البريد »

ثم عدت فأقلعت عن الكتابة عندما علمت أن للفقراء رائحة كريهة تلازم حتى رسائلهم ، والسعاة تأبى أن تقدم للساده شيئاً كريها ..

إذن فالله قد من عليك فعلا بهذه الزيارة من حيث لاتحتسب، وعوضك عن كل هذا الذى رأيت . ومن يدرى ربما أن الله لم يكتبها للمدينة إلا لغرض يبغى من خلفه إسعادك أنت يادرويش،

وانفرجت أساريره عن ابتسامة حلوة أضاءت جبينه المتغضن، وأعادت البشر إلى وجهه المترهل، ومن ثم راح يعد ليوم الزيارة ويعمل له ألف حساب، وقبل الموعد بيومين توكل على الله وانساب فى الطريق الوعر الذى لا يستقيم إلا ليلتوى ، ولا يلتوى إلا ليستقيم، تتقدمه عصا السنط الضخمة الطويلة، وكأنها الأمل يهدهد قلبه ، وينير عينيه ، ويعيد قواه إلى ما كانت عليه قبل الثلاثين .

وقضى ليلته الثانية كما قضى ليلته الأولى فى الطريق ، طوراً يفترش الأرض، وطوراً يفترش عباءته الصوفية الخشنة الرثة ، وفى الصباح الثانى كان النور قد سبقه إلى المدينة، فلاحت له من بعيد ترفل فى بهجتها، وتفترعن ثغر بسام يملأه الزهو بطلعة الزائر العظيم. واستطاع عم درويش أن يرى ببصره القصير الأعلام تخفق فى الهواء ، والبنود تتألق فى السماء ، والثريات تتوج مداخل المدينة وقصورها ، فشعر بشىء جميل يشبه اللذة والفخر ينسم جوارحه ، ويهدهد قلبه ووجدانه، ويعيد إلى ثغره تلك الابتسامه التى لم يألفها من زمن بعيد !

أليس كل هذا الذى يرى من أجل سيده . من أجل ابنه .. من أجل غرسه الذى رباه وتعهده ؟!

واندفع إلى المدينة مزهواً فخوراً، ولكنه ما أن اخترق بعض شوارعها وأشرف على ميدانها الرحب الفسيح، حتى رأى جموع الناس المتراصة تتدافع كأنها الموج الزاخر، ورآها تندفع فى قوة، وتنساب فى حرارة، يتقدمها هتافها الذى يشق عنان السماء، ويطغى على صوت الموسيقى، ودوى البارود الذى كان يتفجر من كل ناحية معلناً مقدم الباشا العظيم . وبوغت الشيخ بكل هذا الذى رأى فنسى كل شىء إلا موجة الفرح التى غمرته، وصرفته إلى نزعة صوفية حارة أخرجته عن طوره، فراح يلف على قدميه ملوحا بعصاه فى الفضاء، مردداً بسرعة وفى غير انقطاع .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر ... إلى أن خارت قواه وسقط على الأرض، وكل شىء فيه يضحك حتى عصاه السنط الطويلة، وحتى الجرح الذى أحدثه بجبينه سقوطه بين الناس من هول الزحام .

بيد أن كل هذا تحول بعد قليل إلى حسرة مميتة، ويأس قاتل، وذلك عند ما أيقن الشيخ أن المستحيل هو أن يبلغ مكان الباشا، حتى ولو استعان على ذلك بفنون السحر وأفانين السحرة . ولما تجسم لخاطره هذا الوهم البغيض، أحس بمرارة الخيبة تكاد تذهب بقواه وتأتى على تلك الذبالة الباقية فى عينيه، فهمهمت شفتاه، ورأرأت عيناه، ومن ثم أجهش باكياً .

وكأن السماء كانت أكرم من أن ترى الشيخ يبكى، فهمست فى أذنه ببعض كلمات، ما إن استوعبها حتى تناول عصاه، وجفف دموعه، وانطلق يركض وقد عاد البشر إلى محياه كما عادت الحياة تدب فى أوصاله، وماهى إلا دقائق معدودات حتى كان الشيخ خارج المدينة، ينتظر رجعة الموكب بالباشا، فيستوقفه بأن يلقى بجسده الخائر المنهوك أمام سيارته.

وقد حقق القدر له أمنيته، فما إن أقبل العصر حتى أقبل معه الباشا عائداً ترعاه السلامة فى عودته، وما إن أبصر عم درويش بسيارته الفخمه التى زانتها الورود من الجانبين مقبلة تتهادى، حتى لمعت عيناه، ودق بعصاه، وألقى بجسده أمامها إلقاء. فتوقفت السيارة عن السير، وهم الناس أن يطبقوا على الشيخ ويقطعوه إرباً ويقصوه إقصاء، لأنهم ظنوا به الظنون، إلا أن الباشا أشار بيده قائلا:

— اتركوه. إننى أعرفه... إنه درويش.

وانحنى درويش على يد السيد يقبلها لاهثا متهللا، يردد من فرط فرحته:

— أنا درويش.. أنا عمك درويش.. أنا أبوك درويش.

ثم رفع رأسه ليقول له شيئاً، ليقول له سراً، ولكن الباشا كان قد دس فى يده شيئاً، وأومأ إلى السائق فانطلقت السيارة فى طريقها.

وضاقت الدنيا بالشيخ، ولكن يده كانت قد أطبقت على ذلك الشىء الثمين الذى ظفر به، وظل كذلك حينا، ثم استطاع بعد جهد

أن يقرب راحته المرتعشة من عينيه المقفلتين .

وما إن تبين ما بيده حتى تقلصت أساريره . وجحظت عيناه ، وبرقت بريقا مرعبا اضطرب له جسده اضطرابا ، واهتز قلبه هزة عنيفة ، استيقظ على أثرها الشيخ من إغفاءته الطويلة على حافة الترعة ، فألقى أنامله ماتزال قابضة على ذلك الجسم الصلب الذى أحس به وهو يعيد إلى جيبه كسرة الخبز السوداء الجافة ، فأخرجه فى هدوء .. وقلبه فى يده مبتسما ... وتفرس فيه ضاحكا ... ثم مد يده وألقى بالخمسة القروش فى الترعة .

الثوب المهلهل

كانت الموسيقى تصدح حينما أقبلت الأميرة تتمايل فى وشيها وحلاها ، تسبقها رائحة المسك والطيب ، ويتقدمها أريج العطر الفواح المنبعث من أعطافها السكرى المترنحة ، وشعرها الكستنائى اللامع ، الذى تركته فى أمان يلهو على ظهرها المتبلور العارى ، فاستهوته أماكن البروز فيه وأغوته حتى تطاول على القمم العالية فى الجسد الفارع .

وكانت تسير ومن حولها ست وصيفات أبكار جميلات ، كأنهن الحور العين يتثنين فى المخمل ، ويتمايلن فى الوشى على أنغام اللحن المعزوف ، حتى لتخالهن من لين خطاهن وتكسر أعطافهن ، عرائس ثملات من حر العناق ، تعبات من طول السهر .

وأقبلت الأميرة على البهو الفسيح المطل على حديقة القصر الغناء المترامية ، ووقفت تتلفت حواليها وتمعن فى كل ما ترى ، وتصغى إلى كل ما تسمع . تصغى الى اللحن المعزوف الذى توقع عليه الأطيار شدوها وترجعه أنغامها ، وهى فى وكناتها على أغصان الزنابق ومتفرعات البنفسج ؛ وتمعن فى الطبيعة الساجية التى كشفت عن جمالها قبيل الغروب فبدت مواطن الفتنة فيها أخاذة خلابة ، حتى خلبت الأصيل نفسه ، فانساب نضاراً خالصاً ينسكب على أفواف الزهر الغافى المستسلم لعبث النسيم العليل .

وقفت تمعن فى كل هذا لعله يروح عن نفسها بعض الشىء ،

ويعيدها ولو قليلا إلى سيرتها الأولى من البهجة والرضا ، ويجعلها تعثر ولو صدفة على مرحها الذى كان يطفو على طلعتها المشرقة نوراً ينعكس على عين رائيها ، كما تنعكس أضواء الشمس على المرآة المجلوة الصافية .

ولكنها لم تجد إلى كل ذلك سبيلا . ولما لم تؤثر فيها هذه المناظر كلها ، أو فى نفسها المنطوية على تفكيرها المرير الذى انتابها من يوم أن تربعت على قصرها المنيف الفسيح الجنبات ، قفلت راجعة مغمضة العينين فى سهوم كسر نظراتهما ، وأسبل هدبهما الطويلين على خدين بلون الورد .

وأخذت تنقل الخطى نقلا ومن حولها الوصيفات الست ينظرن إليها آسفات ، ثم إلى بعضهن ويتحدثن صامتات ، حتى أقبلت على إحدى غرف القصر ، وكانت غرفة تزيين الأميرة ـ فنظرت إليهن نظرة عجلى ، انصرفن على أثرها ساهمات ممعنات فى الصمت ـ وقبل أن يتلاشين من أمامها ، أقبلت أخريات أربع ، تحمل كل واحدة منهن شمعة كبيرة تضىء ما حولها ، ثم ركمن أمامها فى خشوع ، وهن عاريات إلا من غلائل هفهافة رقيقة ، وشعر كالليل حجب من الخلف كل ما بدا عارياً من الجسد ، وانساب من الأمام متهدلا على الصدر ومتفرعاً خصلا من بعد الثديين . ثم تناولن يدى الأميرة وتخطين بها عتبة الغرفة وأسدلن ستائرها المختلفة ، وقربن من أرائكها المبثوثة ، بعد أن رددن بابها وأحكمن رتاجه . ومن ثم

جردن الأميرة من ثيابها ، وأخذن يدلكن الجسد العارى بخالص المسك والطيب ، ويدهن القد الممشوق بسائل العطر المصفى وألوان المساحيق المجلوبة من بلاد الهند .

وكملت زينتها ، وبدأ رواؤها ينير ما حوله كأنما هى شمعة خامسة ارتدت ثوباً ورديا من الحرير الهفهاف ، بلون الوردة التى قطفتها وهى فى الحديقة . وعقصن لها شعرها على طريقة جديدة أضفت على الوجه البسام إشراقاً نورانياً ، ومعانى أخاذة للجمال الخارق .

فالجبين الوضاء يتلألأ وتنعكس أضواؤه حبيبات واضحة على الخد المتورد فتزيده التهاباً ، والعيون الكحيلة تترى رنواتها الخاطفة من تحت طرف سقيم منكسر ، ومن وراء أهداب طويلة مسبلة على جفنين كأنهما السيف ، أو كأنهما الوهن ، أو كأنهما الدنيا بأسرها . والشفاه القرمزية تبدو لك ، وكأنها ذاهلة قد رنحها الشوق للقبل ، فتلوح من بعيد كقلب وردة حمراء ذابلة فى باقة منسقة من الزنابق .

يحمل كل هذا جيد مشرئب أتلع ، كأنه فى مرمريته الناصعة ، وغفواته السكرى ، يغريك فى خبث بالصدر العريض العارى ، والثدى الأرعن الذى لا ينى يتطلع إليك .

وسارت الأميرة بعد أن فرغت من زينتها ، وتجملت وتعطرت ، تتقدمها الشموع الأربع ، حتى بلغت بهواً رحباً فسيحاً توسطته

مائدة حافلة بشتى أنواع الطعام الشهى ، ومختلف ألوان الباقات المنسقة التى انعكست عليها أضواء المصابيح الكبيرة، فجعلت المائدة وما عليها قطعة كبيرة من الماس تتلألأ فى ناظريك .

وجلست الأميرة وبدأت تأكل ، إلا أن نظرة عرضت منها إلى شىء أمامها جعلها تغض الطرف ملتاعة ، وترد اللقمة مفكرة محزونة ، فقد كان الشىء الذى وقع نظرها عليه هو مقعد الأمير الذى بقى خالياً . ومع أن هذه ليست المرة الأولى التى تراه فيها خالياً ، ولم تكن أيضاً أول مرة تتناول فيها العشاء وحدها، إلا أنها أطرقت هذه المرة حيناً مفكرة ، ثم رفعت رأسها المثقل بالهموم وأشارت إلى إحدى الوصيفات وتمتمت :

— علىّ بجنان .

وكانت جنان هذه هى كبيرة الوصيفات ، التى يتحتم عليها أن تلازم الأمير حاضراً ، وتتقصى أخباره غائباً ، ولما جىء بها . ومثلت أمام مولاتها فى خشوع ، نظرت إليها الأميرة ثم قالت :

— أين الأمير ؟

— فى دار الخلافة .

— وماذا يعمل ؟

— مجتمعاً بقواد الجيش وأرباب البلاد .

— وفيم يتشاورون ؟

— فى شئون الخلافة وتحصين الحدود ومحاربة العدو .

فرنت إليها الأميرة واستدارت متمتمة : « شئون الخلافة ، تحصين الحدود ، محاربة العدو ، أليس لكل هذا من آخر ؟ »

وصمتت ثم عادت تقول :

— ومتى تناول عشاءه ليلة البارحة ؟

— فى الواحدة صباحاً يا مولاتى .

ففغرت فاها ، وأومضت عيناها وقالت ، وهى تديم النظر فى عينى جنان :

— ومتى أوى إلى مخدعه إذن ؟

— قبيل الفجر بدقائق .

فأشاحت بوجهها ملتاعة وقالت :

— وفى السادسة صباحاً كان مستيقظاً ، أليس كذلك ؟

— أجل يا مولاتى .

وعاودت الأميرة إطراقها اليائسة ، وظلت كذلك حيناً ، ثم رفعت رأسها وأشارت إلى جميع الوصيفات بالانصراف فى غضب ، ومن بينهن جنان ، وبقيت وحدها برهة ، ثم غادرت المائدة دون أن تمسها ، وراحت تجوب فى أرجاء القصر وهى مهمومة مفكرة ، ضيقة الذرع بكل شىء ، حتى بنفسها .

وضايقتها رحابة القصر ، الذى تمثل لها سجناً يكاد يخنقها ، ويتردى فيه جسدها الغض البض الفتى الذى لم يخلق للوحدة ولا للانشغال عنه — بشئون الخلافة وتحصين الحدود ومحاربة العدو — فذهبت

إلى النافذة ، وحسرت سترها الحريرى المسترخى وارتفقت عليها ، فطالعتها الحديقة الغناء المترامية ، وقد لفها الليل بكسائه الداكن الأسود ، فغدت والأزهار تتراءى فيها بيضاء ناصعة ، أشبه بالصفحة الصافية . تتلألأ فيها النجوم وسط ليل بهيم داج . وصادف هذا المنظر هوى فى نفس الأميرة ، فراحت تتمعن فيه ، وتمد بصرها إليه مداً فى الظلام ، وتجوب به فى أنحاء الحديقة ، وتقطع به مسافاتها الشاسعة كأنما تبحث فيها عن شىء . وبيناهى كذلك ، لمحت عن بعد شعاعاً ضئيلا ينبعث من سراج خافت يتأرجح نوره ، وتنازعه البقاء نسمة عابرة تعبث به . ولكن نظرها الذى اعتاد التحليق فى أجواء الآمال البعيدة الذاهبة ، وعلمه القلب الملتاع المتشوف سرعة الركض خلف السراب القائم بين القمم المتصدعة ، جعلها ترى فى وضوح كل ماينعكس عليه شعاع السراج الشاحب الأصفر :

رأت رجلا عرفت فيما بعد أنه حطاب اتخذ من هذا المكان من سور الحديقة المقابل للصحراء مأوى له ولزوجه ، بعد أن أقام به عشاً من القش جمع أعواده من هنا وهناك ، كما يجمع العصفور الغريب أعواد عشه ويقيمه بين الأغصان ، ورأته فى ثيابه الممزقة ، وزيه المغبر ، يجلس إلى زوجه التى كانت قد شدت على خصرها ، وراحت ترقص رقصاً مغريا أخاذاً توقعه على أنغام (الدف) الذى يضرب زوجها عليه ، ورأتها كلما تضاعف إعجاب زوجها برقصتها ضاعفت من جهدها فى الرقص ، وكلما تعبت وراحت تتصبب عرقاً

ارتمت على صدره لتستمد من أحضانه قوتها، ولتستعيد من بين شفتيه مرحها ومرونتها، ثم ترجع فتعاود الرقص على دقات (الدف) وهى فرحة مرحة، تلف على نفسها كالعصفور الغرد.

ثم رأتها بعد أن خلصت هى من رقصها، وخلص هو من توقيعه، تنظر إليه ثم تفتح له ذراعيها، فتلقفتها أحضانه، ومن ثم ناما فى العراء لايسترهما سوى غطاء من الخيش لايختلف لونه المغبر عن لون الأرض التى ناما عليها.

رأت الأميرة هذا المنظر فتأملته وأمعنت فيه، وراحت تنقل بصرها بين العش القائم فى العراء الذى ناما على بابه، والأرض الفضاء التى افترشاها، فلمست السعادة التى ترفرف على الحطاب وزوجه، واستهواها ذلك الثوب المهلهل الأسود الذى ترتديه الزوجة السعيدة، فراحت تمعن فيه وتقارن بينه وبين الثوب الوردى المرصع بخالص الجوهر والفضة الذى ترتديه، ولم يقطع عليها هذه التأملات سوى دمعة حارة انفرطت من عينيها فجأة، وأحست بها تنساب على الخد الأسيل ساخنة حامية، فاهتز لها جسدها الذى راح ينتفض فى النافذة، والذى على أثر اضطرابه العنيف استيقظت من نومها (الثريا) ابنة (معن بن زائدة)، التى كانت مضرب المثل فى الجمال فى عصرها. فألفت نفسها لا تزال نائمة على بساط من الصوف الخشن، تعودت النوم عليه منذ نعومة أظافرها.

ولم تمكث طويلا فى نومها بل فتحت عينيها ، وانطلقت تركض إلى مخدع أبيها الذى كان قائماً يصلى ، فانتظرته واجفة ترتعد حتى خلص من صلاته ، فارتمت على صدره باكية منتحبة هاتفة :

— أبى ، لا تزوجنى من الخليفة أبى جعفر المنصور .

قالت ذلك ونظرت إليه ، وحدقت فيه ، وفتحت أذنيها لتسمع قوله ، ولكنها لم تسمع إلا دوى لطمه قوية كادت تدمى وجهها ، فارتدت وجلة خائفة تترقب .

ومر أسبوع أعلنت بعده خطوبة (الثريا) للخليفة أبى جعفر المنصور ، فانهالت التهانى على أبيها القائد المحظوظ الذى حظى بالشرف العظيم .

وذات ليلة ، بينما كان الخليفة فى القصر يتشاور مع قواده ومن بينهم القائد معن بن زائدة فى شئون الخلافة ، وتحصين الحدود ، ومحاربة العدو ، كانت الثريا تضرب فى الصحراء مع أعرابى يرعى الإبل ، هو عامر بن الهيثم ، لتعقد عليه .

صفقة رابحة

كان الحمار يسير فى الطريق الملتوى بين الحقول والمزارع المترامية متمهلا ، على غير العادة التى ألفها منذ خمس عشرة سنة اعتاد أن يقطع فيها نفس الطريق كل يوم فى خمس ساعات ذهاباً ، ثم يعود فيقطعها ثانية فى نفس اليوم فى خمس ساعات أخرى .

وكان تمهله فى السير لاعن جهد أضناه، ولاعن شيخوخة وكبر سن، ولا عن طول المسافة ، ولكن لأنه أحس أن صاحبه فى هذا اليوم على غير عادته . فما إن امتطاه هذا الصباح حتى ألقى بجسده عليه إلقاء، كأنه جثة هامدة ألقيت على ظهره . وكأن الحمار أحس فعلا بما يعانيه صاحبه من ألم مرير فى هذا اليوم ، فتألم هو أيضاً، وراح يخب به فى الطريق الملتوى على مهل، وقد أمال عنقه الطويل إلى أسفل، وأدنى رأسه الضخم من الأرض حتى كاد يصفعه بحافريه، ونكس أذنيه الطويلتين حتى غدتا على صفحتى الوجه الطويل كجناحى طائر جريح . وكلما قابله إنسان أو حيوان مثله تجنبه حتى يمر به فى هدوء ، وحتى لا يقلق الإنسان المتكوم عليه كحزمة من القش، ترسل شمس الصيف الحارة أشعتها عليها كأنها شواظ من نار، وكلما خلا بنفسه فى الطريق ازداد ألمه ، لا على مصيره المجهول إن تركه هذا الصاحب الأمين، ولكن على الخمسة عشر عاماً التى اقتناه فيها هذا الصاحب، وعاشره فيها معاشرة الصديق للصديق، لم يضربه مرة، ولم يجهده يوماً عن قصد، ولم يبخل عليه فيها بتبن أو بفضل

عليه بعليقه ، وكلما تخيل هذا وأحس بحالة صاحبه التى يعانيها اليوم وهو على ظهره ، تساقط عرقه وتصبب على حوافره ، وهزلت خطواته حتى كادت تتوقف ، إلى أن بلغ أول قرية فاخترقها دون أن يغير شيئاً من خطواته أو يرفع رأسه ، حتى وقف عند مكان اعتاد أن يقف فيه فى هذه اللحظه من كل يوم . وأقبلت إحدى النساء وهى تنادى بصوت مبحوح : « .. عم جمعه . . . عم جمعه .. » ، ولكن عم جمعه فى هذا اليوم لم يسمع النداء ، لذلك لم يلتفت كالعادة ولم يجب ، وأدرك الحمار أن صاحبه لم يسمع ، وعز عليه أن يظن شيئاً بعم جمعه ، فاهتز فى وقفته كأنه يريد أن ينفض عنه غباره . واهتز معه عم جمعه بجسده المقرور ، فاستيقظ وحاول أن يفتح عينيه المحمرتين ولكنهما لم ينفتحا ، فخاص هدبيهما المتآكلين من سائل لزج ، تجمد عليهما وعلى جانبى الأنف الأقنى المستسلم ، على الوجه المغضن ، لعبث الحياة ، فأدرك أنه بلغ أول قرية ، فرفع رأسه الثقيل الذى لفحته حرارة الحمى المتأججة فيه ، وأقامه على عنق مترهل معروق ارتكز على صدر خائر ، كأنه صندوق من صناديق الحلوى الفارغه عبث النمل بجوفه ، فغدت أنفاسه تتردد فيه كأنها حشرجة طائر مذبوح ، ثم رفع ذراعاً مرتعشة ، ومد يداً مقرورة الأنامل ، وأخرج من (خرج) بجانبه على الحمار عدة خطابات أدناها من عينيه المحمرتين ، وراح يتمتم بصوت مبحوح ، وشفتين غليظتين واجفتين : « جواب لمبروكه الشنوانى .. وجواب لحميده الزعبلاوى

وجواب . . ل .. ل . . ، ولما لم يتمكن من رؤية خط القلم الرصاص الباهت الذى كتب به المظروف ، أدنى الجواب من عينيه . ومكث لحظة تمتم بعدها : « للحسيب النسيب الفاضل الشيخ عيسوى البردان عربجى حنطور حضرة عمدة الناحية » وناول المرأة هذا الخطاب الثالث ، ومد أنامله إلى حبل رفيع بجانبه انساب فى عدة حلقات نحاسية على فتحة الخرج ، فشده فانقفل الخرج ثانية . وهمت المرأة أن تسأله عن خطاب لها باسم ستيته العجوانى ، ولكن الحمار كان قد أحس بوسوسة الحلقات فواصل سيره دون أن يتكلف صاحبه مؤونة الإصغاء إلى ثرثرة أهل الريف ، التى إن كان قد احتملها خمسة عشر عاماً فهو لن يقوى على احتمالها اليوم . وعاد الحمار يواصل سيره منكس الرأس ، وعاد عم جمعه إلى إطراقته فألقى برأسه الملتهب على صدره الخائر الذى راح يهتز بالرأس اهتزازاً يوقعه الحمار على خطواته البطيئة ، وترجعه الفتلات الأربع التى أبقاها القدر من زر طربوشه معلقة بخيط رفيع كذلك الخيط الذى تتعلق به آماله فى دنياه الذاهبة . ومن ثم أغمض عينيه ، ولكن على بيت مهدم فى أقصى المدينة تعج ساحته الضيقة ذات الجوانب المتآكلة والسقف العارى بسبعة أولاد ، خلفهم الفقر أشباه عرايا يتطلعون إلى السماء ولا يرتجون من رحمتها أكثر من خرقة ولو بالية تقيهم عوادى المذلة والأذى ، وخلفهم الجوع أشباه آدميين منهم من يتعزى عن أدميته بالدموع ، ومنهم من يحول مجرى هذه الدموع

إلى القلب الذابل عساها تروى غلته ، وعساها بذلك لا تزيد فى أسى الأم القابعة فى وسطهم تتحسر أكثر ما تتحسر على طفليها الحديثى الولادة ، وهى تراهما أمامها كالقطط الضريرة يزحفان على أربع ، يبحثان عن ثديها الذى أخفته عنهما لاضنائه ، ولكن شفقة بثغريهما الطويئين أن يتعبا من رضاعة ثدى امتص البؤس لبنه ، وخلفه كالخرقة الممزقة التى تستر بها صدرها . ومع ذلك فهى تنظر إليهم جميعاً ، لا إليهما ، وتشفق عليهم جميعاً ولا تملك إلا أن تجفف عبراتها وتجلس معهم فى المكان المعهود من الساحة الضيقة ، بحيث تكون وجوههم مقابلة لمدخل الدار ، حتى يتمكنوا من رؤية أبيهم وهو يفتح عليهم الباب فى أى وقت من الليل أو النهار ، وبيده تلك الأرغفة الستة ، وقطع الجبن القريش الثلاث . وما أن يبصروا به حتى يهرعوا إليه ويلتفوا حوله ، ولا ينتظرون حتى يضع أمامهم قوتهم اليومى الذى يمضى الشهر ولا ينقص عدده أو يزيد . وتمضى الشهور ولا يتبدل لونه أو يتغير ، ومع ذلك يتخاطفونه ويتهافتون عليه تهافت الدجاجات الجائعة على حبات الحنطة . ثم يأوون إلى مضاجعهم فى غرفة لا تقل إظلاما وتهدما عن غرفة الحمار المجاورة ، التى اتخذ عم جمعه منامته فيها بجانب حماره ، يقضى الليل بجواره ينظر إليه وهو يأكل ، ويتخيل أولاده وهم نيام فى الغرفة المجاورة ، ومنهم من استطاع أن يظفر بكسرة خبز كاملة فأكلها ونام مطمئناً ، ومنهم من جمعه أخوه فى كسرته ، فبات على الطوى وقد أغمض عينيه ليصغى لنباح أحشائه الجائعة ، فلا يسمعه وهو بجانب الحمار إلا أن

يغمض عينيه هو الآخر ، ولكن على دموع بلورتها حرقة العوز ومذلة الفاقة، حتى الخامسة صباحاً، فيتسلل بحماره إلى مكتب البريد ليوزع على الناس أخبار الأهل وأنباء الأصدقاء .

ولكنه ليلة البارحة لم ينم بجانب حماره كالمعتاد ، لم ير حماره وهو يأكل ، ولم يتخيل أولاده إلا وكلهم أيقاظ على الطوى ينظرون إلى باب الدار ينتظرون ولا من مجيب ولا من غائث، فقد كانت ليلة البارحة آخر ليلة فى عمر الجنيهات الثلاثة التى يقبضها كل شهر . وكانت ليلة البارحة أول الليالى التى بدأ فيها الاستجداء وعجز فيها عن الاستدانه وعن العشرة القروش التى يبتاع بها الأرغفة الستة وقطع الجبن الثلاث، وهو لا يقوى على الذهاب إلى الدار بيد فارغة، لأنه لا يستطيع أن يرى أولاده وقد هرعوا إليه والتفوا حوله ولا يقدم إليهم إلا النظرات والأنات والدموع ، فهذه وإن كانت تهدهد الخاطر أحيانا فهى لا تطفىء حرقة الظمأ أبداً، وإن كانت تريح الفؤاد بعض الشىء فهى لا تسكت مواء القطط الجائعة . ولذلك آثر أن يبيت مع حماره على الرصيف بجوار هنداوى خفير مكتب البريد ، الذى كان يشكو إليه هو الآخر تعسر زوجه فى الولادة ، وغطرسة القابلة التى أبت أن تذهب إليها إلا بعد أن تأخذ عشرين قرشاً ، وهو عاجز عن قرش واحد يبتاع به شيئاً يتبلغ به ، إلى أن أقبل الصبح فانقطع حديثهما، وانصرف عم جمعة ببريده وركب حماره، ويمم وجهه شطر القرى والمزارع كأن لم يحدث فى الدنيا شىء . وكأن أبا من الآباء لم يقض ليلته على

رصيف من الأرصفة ، يشكو إلى الله حرقة الظمأ والأنهار تتدفق من حوله ، وكأن أما من الأمهات لم تقض الليل ساهرة حول أطفالها الجياع تبادلهم جوعا بجوع ، وتبادل زوجها الخائب دموعا بدموع ، وكأنها لما انتصف الليل ولم يأت عرفت سر تأخره ، وأنه قد عجز عن ثمن الرغيف ، وعرفت أيضاً أنه لابد من حل يخلصها من صراخ الأولاد ولو إلى حين ، فذهبت إلى جارة لها تستلف منها حفنة من الدقيق تخبزها على الصاج وتسكت بها نباح الجوع ، ولما عادت ألفت أحد الطفلين قد مات ، وذهب إلى ربه يشكو إليه ظلم ثدى أمه المترهل الذى لم يجد عليه بنقطة لبن واحدة من ثلاثة أيام .

وانتظرت الزوجة زوجها فى الصباح عند رأس الطريق الذى يخترقه كل يوم ، وأنبأته أن أحد الطفلين قدمات . . وانصب هذا الخبر انصباباً فى أذنى الأب ، وأربدت منه ملامحه ، وتقلصت له أسارير وجه المجعد ، وانهلع له قلبه ، وثارت ثائرة الشيخوخة فيه ، فهم أن يقفز عن حماره أو يرتد به ثانية ليودع ابنه الوداع الأخير ، بيد أنه أحس فجاءه بشىء جارف هز جسده المنهوك هزاً عنيفاً ، ففتح عينيه فألفى الحمار قد وقف به أمام أول تفتيش من تفاتيش الباشا ، قطع مساحته فى ساعة ونصف كان فيها على ظهر الحمار يستعرض حادثا وقع له من يومين ، فابتسم ولكن من نفسه .

ومد عم جمعة يده المرتعشة الهزيلة وأخرج عدة خطابات ألفى من بينها خطابا مزخرفا باسم الباشا ، فتفرس فيه وقرب خطه

المنسق الجميل من عينيه، وما إن قرأ حروفه حرفا حرفا حتى خطر له خاطر ما إن تخيله وتخيل نتيجته حتى لمعت عيناه لمعانا أضفى على وجهه المغبر شيئاً من الهدوء الذى يبعثه الأمل الحلو.

ودس الخطاب فى جيبه خلسة، وأعطى الخطابات الباقية إلى رجل اعتاد أن يأخذها منه كل يوم، وهم الحمار أن يواصل سيره ولكنه وجهه يميناً، وما إن سار به بعض خطوات حتى طالعه مبنى شاهق جميل راح يتألق تحت السماء الصافية وكأنه مرآة تعكس الشمس أضواءها عليها، تحوطه حديقة غناء تنبعث منها أنسام الضحى معطرة بأريج الورد. ورأى عم جمعة قصر الباشا الجميل المزخرف بشتى الرسوم العربية القديمة، وقد لفته أشجار السرو العالية بفروعها الخضراء، فغدا القصر الأبيض فى قلبها كغانية طروب ترفل فى ثوب فضفاض من الحرير الأخضر، فأخذ عم جمعة بروعة المنظر، ورهبة سور الحديقة العريض المنسق، غير أنه مع ذلك تقدم فى خطوات ثقيلة متباطئة كأنفاسه، حتى أشرف على باب السور، فألفى البستانى ينسق بين يديه باقة كبيرة سوف توضع أمام الباشا على المائدة، فحياه بصوت خنقته أنفاسه المحمومة المتدهورة من بين شفتيه المرتعشتين، وناوله خطاب الباشا ومعه ورقة صغيرة كتبت عليها بعض عبارات مقتضبة، ولكنها كانت فى اقتضابها خلاصة ما فى لغة الفقر من عبارات الاستجداء. وطلب من البستانى توصيلها مع الخطاب إلى سعادة الباشا مد الله فى عمره وجعله ذخراً للبؤساء.

وانتقلت الورقة من البستانى إلى خادم وخادم وخادم ، ثم إلى خادمة وخادمة وخادمة ، حتى بلغت يد الباشا .

وانتظرهم جمعة بجوار السور مع حماره ، وبعد أن طال به الوقوف أحس أن ساقيه قد خذلتاه ، وأن رأسه قد ثقل فجأة ، حتى أن عنقه قد ناء به . وأحس أنه فى حاجة إلى أن يجلس ، وإلى أن يغمض عينيه ، وإلى أن يريح رأسه هذا الذى ثقل فجأة ، فاقترب وحماره خطوة من السور ، ومن ثم جلس بجواره وقد وضع ذراعيه المرتعشتين على فخذيه ، وألقى برأسه عليهما أمام الحمار الذى مد هو الآخر عنقه الطويل ناحية رأسه ، وكأنه يوشوشه أو يصغى إلى تدهور أنفاسه من بين شفتيه .

ومرت ساعات أقبل بعدها الظهر ، ومرت ساعات أقبل العصر بعدها ، وأقبلت ساعة اعتاد أن يتريض فيها الباشا ، فأقبلت سيارة فخمة ، وثيرة المقاعد ، جذابة اللون ، متبلورة كالمرآة ، وما إن وقفت أمام مدخل القصر حتى أقبل الباشا يرفل فى حلة لامعة بيضاء ، زان صدرها بوردة كبيرة بلون رباط رقبته الذى حلاه بدبوس من الماس الثمين . وأقبل على السيارة تسبقه رائحة العطر الجميل ، وهم أن يدخلها ، ولكنه أبصر بعم جمعه وهو فى جلسته أمام الحمار ، الذى أدنى رأسه من فخذيه كما يدنيها من مخلاة فارغة ، فتذكر الورقة التى وصلته مع الخطاب . فناداه ، ولما لم يسمع عم جمعه النداء ، تقدم

السائق منه وربت على كتفيه، ولكن جسده كان قد أصيب بالصمم هو الآخر كأذنيه.

وتأثر الباشا قليلا وركب سيارته، وأمر السائق بالسير بعد أن أمر بدفن الجثة على نفقته، وصرف ثلاثة جنيهات لأسرته، على أن يضم الحمار إلى حمير التفتيش.

طريق الدرس

ألقت بالمجلة التى فى يدها جانباً، ورجعت بظهرها إلى الخلف، وتمطت على المقعد المستطيل الذى تجلس عليه، وارتكزت بمرفقيها على جانبيه، ومدت ساقيها إلى الأمام فانحسر عنهما طرف (الروب) الأزرق فبدتا عاريين إلا من جمالها. فنظرت إليهما طويلا ثم قربت رأسها منهما، وأخذت تفحصهما بعناية كأنها لم ترهما قبل اليوم. ولكنها بدل أن تسر من روعة اكتنازهما ودقة التفافهما، أو بدل أن يبهرها بياضهما العاجى وملمس بشرتهما الناعمة، ألقت ببصرها كله عليهما فى أسف. ثم مكثت لحظة مدت خلالها أناملها الرقيقة ولمستهما فى رفق، ثم صعدت من بين صدرها زفرة أحست بحرارتها وهى تمر منسابة بين ساقيها.

ودخلت عليها الخادم وفى يدها مجلة جديدة غير التى كانت فى يدها. فتناولتها منها وأذنت لها بالانصراف، ونظرت إلى المجلة وقلبتها بين يديها، ثم ابتسمت ساخرة من نفسها، مشفقة على تلك النفس آسفة لها، لأن المجلة الأولى ظلت معها طوال اليوم ومع ذلك لم تفهم منها شيئاً، ولم تقرأ فيها سطراً واحداً. ذلك لأن عقلها ما كان يلازمها أثناء القراءة، وهو لا يلازمها أبداً. حتى فى ساعات الجد يأبى إلا أن يكون شاردا عنها، سابحاً فى ملكوته الذى اختاره لنفسه، باحثاً عن دنياه المفقودة.

وقامت من مقامها متثاقلة تتمطى، وتمشت بخطى وئيدة وسط

الصالون الفخم الذى صفت على جانبيه الأرائك ، مزركشة بفاخر الرياش والطنافس ، وأخذت تنقل قدماً عن قدم فى ثقل وبطء وتخاذل . وكلما نقلت قدماً حز الألم فى نفسها حزاً ، حزناً على ذلك العقل الشارد ، وأسفاً على دنياها الضائعة .

« فيمَ هذه الأنفاس الملتهبة التى تكاد تحرقك يا رجاء . وقد كانت كنسمات الصباح تحمل إلى البلبل قطرات الندى معطرة بأريج الورد ؟ »

« فيم السهد حتى تكحلت به العيون النجل . . ؟ »

« فيم الأرق حتى ذبلت الأهداب الوطف . . ؟ »

« فيم الأسى يا رجاء . . . ؟ »

« فى هذا الذى لم تذكرى يا رجاء . فى دنيا رجاء المفقودة . »

« أولم يعوضك كل هذا عنها شيئاً . . ؟ »

« هيهات أن ترضى حواء بغيرها بديلا ! »

« إذن لماذا لم تجدى فى البحث عنها يا رجاء . ولو أنفقت فى سبيلها الروح والجسد . . ؟ »

« أف من بابيها . . إن أحدهما مشروع باعتراف الأرض والسماء ، ولكن قد علا رتاجه الصدأ ، وكفن مفتاحه بخيوط العناكب ، وقد ظللت ثلاث سنوات أعالجه فلا أفلح ، أقيمه فلا يستقيم ، أراضيه فلا يرضى ، أعانقه فلا يقبلنى . . أرويه فلا يطفىء نار قلبى » .

« والباب الثانى يا رجاء . . . »

« إنه مستقيم الزتاج ، ميسور المعالجة . لا يكاد يلمس حتى يفتح على مصراعيه ليستقبل كل حواء ، ويرحب بكل حواء ، ويرضى كل حواء ، ويطفىء نار كل حواء . »

« ولكن طريقه . . شائك غائر الظلمة . . حالك السواد ، كطريق القبور تماماً ، يأخذ دائماً ولا يعطى أبداً »

« وأنا أريد . . . »

« تريدين ماذا . . . ؟ »

« أريد أن أحيا . . أريد أن أعيش . »

وانفجرت باكية ، وارتمت على أول مقعد قابلها ، ودفنت رأسها الصغير الجميل بين ذراعيها ، واسترسلت فى بكائها بصوت خفيض لا يكاد يبلغ أذنيها ، ولم تفطن لوجودها وتفيق لنفسها إلا على صوت الطاهى وهو ينقر بيده على الباب نقراً هيناً . . فيه خوف ، وفيه تهيب ، وفيه احترام . فالتفتت إليه مذعورة وبادرته قائلة بصوت لا يخلو من خشونة ، ولم يجرد من ازدراء :

— ماذا تريد . . ؟

— لقد أعددت المائدة يا سيدتى .

— اقترب منى . لم أسمع ما تقول . لماذا لا تقترب منى دائماً كلما حدثتنى ؟

وحدقت فيه ، وبرقت عيناها ، واتسعت حدقتاهما ، وصوبت

شعاعهما النارى إلى عينيه . فأقبل عليها خائفاً يترقب ومثل بين يديها وقال :

— عفواً . لقد فرغت من إعداد المائدة وجئت لأنبىء سيدتى ، ومن أجل هذا جئت . . وابتسمت ثم أغمضت عينيها وأشاحت بوجهها متمتمة .

— اذهب بعيداً عنى . . لا أريد أن أراك . . لا أريد أن أراك . إنك أبله ، إنك مجنون .

وانصاع الخادم لأمرها ، وانصرف من حضرتها . . وتبينته فلم تجده ، فزاد حنقها عليه ، وتضاعف مقتها له .

لقد انصرف . . لقد انصرف . . إنه أبله . . إنه مجنون .

ولكن لماذا تخيفنى عيناه . . لماذا يخلق بريقهما فى قلبى شيئاً من الخوف . . شيئاً من الرعب . . شيئا آخر لا أعرف له اسماً . . لا أعرف له كنها . . لماذا لا أقوى على التطلع إلى جبهته العريضة . . إلى عينيه الناريتين . . بل ولماذا يضطرب قلبى وترتعد فرائصى كلما ناولنى شيئا بيده ورأيت ساعده القوى المفتول .

— لا . . لا . . لا أطيق أن أراه . . لا أطيق أن أراه . . إن وجوده فى البيت يضاعف أرقى ، يضاعف قلقى ، سأقصيه بعيداً عنى . . سأقصيه بعيداً عنى . . وف لا أراه أبداً بعد اليوم . . سأطرده . سأطرده .

— ومن الخير أن تطرديه يا رجاء .

وضغطت بأصبعها على الجرس ، فأقبلت عليها الخادم . وما إن رأتها حتى قالت :

— أولم يأت سيدك بعد . . ؟

— لم يأت يا سيدتى .

— ومتى عاد ليلة البارحة . . ؟

— لم أره ، ولكن البواب يقول إن الساعة بلغت الثالثة صباحاً مع أوبته .

— الثالثة صباحاً ؟ ! . وخرج الثامنة أليس كذلك ؟

— أجل يا سيدتى . .

وأطرقت متمتمة : « أيفعل الميسر كل هذا ؟ » . . ورفعت رأسها ، وفتحت عينيها .

— أبلغى الطاهى أنه مطرود من اليوم ، قولى له ذلك ، دعيه يذهب بعيداً عنى ، لا أطيق أن أراه .

وانصرفت الخادم وبقيت وحدها ، تهمس فى صدرها همسات :

« أعرفت أن وجوده كان يثقل عليك يا رجاء ، أعرفت أنك كنت تمقتينه ، أعرفت أنه من الخير لك طرده » .

« ولكن أى شىء كان يضايقك منه . . ؟ . . تهيبـــه ؟ ! . . احترامه ؟ ! ليته لم يخف ولم يتهيب ، ليته كان يفهم ، ليته كان جريئاً مقداماً . . لقد ذهب »

« أجل لقد ذهب » .

« وزوجك يا رجاء أين هو . . إنك تكادين لا تريننه فى الأسبوع مرة ، فى الشهر ليلة ، عليك إذن أن توصدى الأبواب ، وتغلقى النوافذ ، وألا ترى الشمس فى العام مرة . حتى لا ترى الجنس الذى تتفتح له جوارحك ، ويفعل بعقلك وقلبك كل هذه الأفاعيل . . . عليك إذن يا رجاء أن . . . »

وأقبل الطاهى على الباب ونقر عليه نقراً هيناً ، فيه خوف ، وفيه تهيب ، وفيه احترام . واما أن رأته حتى بادرته :

— اقترب منى ! لم أسمع ما تقول - واقتربت خطوة - لماذا لا تقترب منى دائماً كلما حدثتنى ؟ . .

وبرقت عيناها واتسعت حدقتاهما وصوبت شعاعهما النارى إلى عينيه .

— أحقاً سيدتى أمرت بطرد خادمها ؟

— من الذى قال ذلك . لا . . لا . . لم أطردك . . إننى أريدك . . إننى أريدك .

واقتربت منه فى خطىً مرتعدة حتى دانته .

— أريدك . . أريدك . . أريدك أن تذهب بعيداً عنى . . لا أريد أن أراك . . لا أريد أن أراك . . اذهب ، اذهب إلى عملك ، إنك غير مطرود .

وخرج الطاهى من حضرتها فرحاً لانصال عيشه ، وتبينته فلم تجده فزاد حنقها عليه ، وتضاعف مقتها له .

« لقد انصرف ، لقد انصرف ، إنه لم يفهم ، إنه أبله ، إنه مجنون » .

وضاقت ذرعاً بجو الصالون الخانق لغلق نوافذه وأبوابه ، وضايقتها أنفاسها الحارة المتصاعدة ، حتى خشيت منها على شفتيها القرمزيتين فراحت تتلمسهما ببنانها ، وتضمدهما بمنديلها الصغير ، ثم ذهبت تجر ساقيها جراً إلى باب الشرفة ، وفتحته على مصراعيه ، فاستقبلها الأصيل شاحباً باهتاً من فرط برودته ، وأطل عليها الليل من خلل نافذة الغرب بوجهه الأسود بارداً مقروراً يرتعش ، وتبينت السماء فإذا بها تتهيأ لبكاء طويل يستحثها عليه الريح الأهوج الذى راح يرقص رقصاته العاصفة على ضوء البرق الخاطف ، ونغمات الرعد الذى يصم الآذان . وبعثت ببصرها إلى عرض الشارع فإذا به خالياً مقفراً من الناس . ولم يقع بصرها إلا على قاطرات الترام ومركبات الجياد والسيارات تمرق مسرعة جيئة وذهاباً ، تحمل الناس وقد فروا إلى دورهم هرباً من عادية الشتاء .

« إذن سيعود هو أيضاً مبكراً هذا المساء يارجاء .. وافرحتاه .. سوف لا يجد من يلاعبه . . إنه لن يجد من يلاعبه .. ولم لا يعود ؟ أليس رجلا كهؤلاء الرجال . له بيت ، وله زوجة تنتظره ، وترقب أوبته بصبر نافد ، وقلب واجف ، وجسد يلهبه العطش إلهاباً ؟

إنه سيعود . وسيقضى ليلة معى ، ومن يدرى ربما ليالى ولكن هل لا بد أن تصفو السماء وتسطع الشمس ؟ ما ضرها لو ظلت

كذلك طول العمر . . . إلى الأبد . » .

وراحت السماء ترسل الدمع البارد بلا شفقة ولا رحمة .

« حقاً إنه سيعود . . سيعود . . وسترد إليك دنياك يا رجاء »

وانفرجت أساريرها عن ابتسامة صافية عذبة ، سرت عذوبتها فى جسدها سريان الكهرباء ، فنشطته وأضاءت جوانبه بمصابيح الأمل ، ودخلت تعدو فرحة مهللة مترنحة القلب ، مصفقة الفؤاد واستدعت الخادم وأمرتها ! . أن هيئى الحمام .

وخرجت من الحمام مستبشرة المحيا ، وضاءة الجبين ، متكسرة الأعطاف ، لا تكاد تحمل نفسها على ساقيها من فرط فرحها ولين خطاها ، وتمهل تثنيها . ودلفت إلى مخدعها وأحكمت رتاج بابها ، وجلست أمام المرآة وبدأت تتزين .

« إن لجسدك عليك حقاً يا رجاء . لابد أن تزينيه هو الآخر . . لابد أن تزينيه ، وتدهنيه بالعطر والمساحيق .

ووقفت فى المرآة عارية وانطرح شعرها الفاحم اللامع على كتفيها ونصف ظهرها ، فحجب هذا الموضع عن عيونها فى المرآة .

« إنك جميلة حقاً يا رجاء » .

« انظرى . . انظرى إلى عينيك . إن لون أهدابهما الوطف كلون شعرك تماما ، لكليهما غاية ، ولكليهما وظيفة ، خلقت أهدابك طويلة رفافة كى تحجب سهام عيونك النارية بعض الشىء عن الناس ، حتى لا يخرون صرعى من مجرد النظر إلى بريقهما . .

وخلق شعرك طويلا غزيراً هفهافاً ، ولكنه يميل إلى الظلمة . لماذا هو كذلك يا رجاء ؟ »

« ليحجب نصفى الأعلى عن عيون الذئاب . حقاً إنهم كانوا يلتهمونك التهاماً يا رجاء لو بديت لهم يوما كما أنت عارية ، ولم يقك هذا الحجاب الكثيف »

« انظرى . . إلى جمال خديك »

« انظرى . . إلى ثغرك . . إنه متورد . . إنه بسّام . . إنه لم يخلق إلا للقبل » .

« انظرى . . انظرى يا رجاء . . انظرى إلى صدرك كيف هو مستقيم الجنبات ، عريض السطح ، راقص التثنى ، لين التموجات ، عزيز على نفسه ، حريص على غيره ، فخور بتوأميه . »

« انظرى إلى الشجرة الفينانة ، كيف تدلت ثمارها وآنت أكلها وطاب جناها » .

« أين راعى الشجرة ؟ أين راعيها يا رجاء . . ؟ »

« ألم ير زوجك كل هذه الكنوز التى تخفيها الثياب . . ؟ »

« سأريه الليلة كل شىء . . سأقدم له هذا الجمال قرباناً على مذبح الجسد الظامىء ، سأتقدم إليه بهذه الشجرة الوارفة الفينانة . ولكنى سأكون حريصة ، سأجعله يقطف منها كل غصن على حدة ، ليميز بين طعم الثمار ، وهيهات للعمر أن ينقضى قبل نفاد شهدها ، سأجعله بعد أول ثمرة يعترف صراحة أن ساعة واحدة

مع زوجة جميلة وفية ، لخير من ألف شهر على مائدة خضراء ،

واقتربت من المرآة بعد أن تزينت وأدامت النظر .

كل شيء قد أضاء .

« ولكن هذا الجفن ، قليلا من الكحل يضاف إلى الزاوية . يكمل الرواء وينفذ السحر » .

وألقت بغدائرها إلى الوراء ، وخلصت جبينها المتلألىء من بعض خصلات كانت ترفرف عليه ، وانحنت برأسها الصغير على المرآة وهى تغنى بصوت شجى أغنية مضطربة النوقيع ، وبدأت فى تجميل جفنها وإذا بها تراه ، ترى زوجها فى المرآة مقبلا عليها من الخلف يمشى على أطارف قدميه يتحسس الخطى تحسساً لكى يفجأها بحلو اللقاء ، فاتحاً ذراعيه لكى يحتوى جسدها العارى فى صدره ضاغطا على نواجذه مهمهماً بشفتيه ، يريد أن ينقض على ثغرها ليرتشف ما فيه من رضاب مرة واحدة ، فابتسمت من قلبها ، ولكنها زمت شفتيها كى لا تضحك ، وتجاهلته منشغلة بالجفن الذى اضطرب فى بنانها اضطراباً ، وتركته حتى أقبل عليها وداناها ، وكاد ثوبه يلمس جسدها ، وإذا بشفتيها تشد شداً ، وتنفذ من بينهما ضحكة عريضة :

« إننى أراك . . إننى أراك ، لن تأخذنى على غرة أبدا »

والتفتت إليه مسرعة ، وفتحت ذراعيها لتقدم إليه بضاعته ،

وترد اليه ماله ، ولكنها رأت الباب ما زال محكم الرتاج ، لم يدخل منه أحد ولم يعبره إنسان .

وغاظها أن تسخر منها أوهامها على هذا الوضع السخيف ، ولكنها لم تغضب .

إن هذة دلائل طلعته ، هذه تباشير أوبته ، أبداً لم تسخر منها أوهامها .

— أليس يمثل الخيال حقائق الأشياء قبل وجودها ؟ أليس يرى القلب قبل العين أحياناً ، وذهبت إلى الدولاب وفتحته ، فطالعتها عدة (فساتين) علقت من أعناقها على مشاجبها ، وألقت عليها نظرة .

« أى ثوب من الثياب الغالية تختارين يارجاء ؟ »

« هذا . . ؟ »

« إنه طويل الذيل والكم ، لا أريد أن أحجب هذه الأذرع العاجية ، ولا تلك السيقان البلورية »

« هذا . . ؟ »

« لا إنه طويل نضفاض ، أريد الذى يحجب اللون ويظهر الأوضاع »

« هذا إذن »

« إنه جميل حقاً ، ولكنه مشقوق الصدر والظهر لا يتفق وبرد هذا المساء »

« إذن هذا ، حقاً إنه محبوك الأطراف ، دقيق التقاسيم ،

ولكن لونه حالك السواد قد لا يبعث فى نفسه البهجة التى أنشدها ..»

ولمحت ثوباً بعيداً لم ترتده فى عمرها إلا ليلة واحدة ، ولكنه كعهدها به ناصع البياض زاخر التجميل ، صفت ألوان الدنتلا صفاً على جوانبه وأطرافه ..

« ما ضر لو كان هذا يا رجاء . . »

« ولكنه ثوب العرس يا رجاء . . »

والتفتت إلى المرآة ورأت نفسها فيها . .

« إننى عروس هذه الليلة ، ليكن هذا ، ليكن هذا » وارتدته .

ولما اطمأنت إلى نفسها فيه ، فتحت باب الغرفة واستدعت الخادم .

سيعود سيدك الآن ، أضيىء مصباح المدخل ، ومصابيح السلم ، لا تنامى قبل عودته ، ربما نحتاج إليك كثيراً هذا المساء .

وجلست على المقعد المستطيل بجانب السرير تنتظر ، ولكن الساعة الآن قد بلغت الثامنة والنصف ولم يأت بعد .

« ترين أنه سيخلف الظن » وما إن خطر لها هذا الخاطر حتى نفرت منه ، وأبعدته عنها ، وظلت به حتى انتزعته ، ومدت يدها إلى المنضدة وتناولت كتاباً صغيراً وراحت تطالع ..

وحانت منها التفاتة عارضة إلى الساعة فإذا بها العاشرة . .

« مالهذه الساعة تركض على غير وعى . العاشرة الآن ، هذا غير معقول . وضايقها سرعة مضى الزمن ومعرفة تحديده ، فتناولت الساعة من على المنضده ودستها تحت الوسادة حتى لا تراها ، ولا تعرف وقتها ، وعاودت قراءتها والليل فى طريقه سائر ،

وظلت كذلك إلى حين . . ومدت يدها على غير قصد منها إلى الساعة ، وأخرجتها من تحت الوسادة ، « إنها الحادية عشر » .

الحادية عشرة ، هذا غير معقول ولن يعقل ، ما أثقل هذه الساعة وما أسمج ظلها ، إنها تركض على غير هدى كالمجانين ، إنها تسخر منى هى الأخرى كما سخر الخيال منذ لحظة » .

وقذفت بالساعة إلى الأرض فتحطمت ، ورجعت إلى كتابها وعاودت قراءتها ولكن فى نفس الصحيفة التى فتحت عليها الكتاب منذ ثلاث ساعات ، وأخذت تقرأ وتقرأ والليل فى طريقه سائر .

وداعب جفنيها خيال طارق بعد حين ، ورقص معهما رقصات مريضة ، ثم انتزع منهما الحياة فأماتهما . . . ونامت . . .

ودخلت الخادم على سيدتها ، فهالها أن تراها نائمة على المقعد بجوار السرير بثوبها الذى رأتها فيه منذ أن فارقتها أول الليل :

— سيدتى . سيدتى .

— ماذا ؟ . هل انتصف الليل . . ؟

— الساعة التاسعة صباحاً يا سيدتى .

— التاسعة صباحاً ؟ التاسعة صباحاً ؟ . . ومتى خرج سيدك . . ؟

— لم يخرج يا سيدتى لأنه لم يعد .

— دعينى وحدى . . .

وأطرقت واجفة ترتعد .

ثم قامت بعد حين تجوس خلال القصر .

ولأول مرة يسمع الطاهى تحية الصباح من سيدته .

الأستاذة

ما إن بلغت بهو مسكنها الهادىء ، وطالعها مخدعها الرحب المنسق ، ورأت سريرها المزركش الوثير حتى طوحت بحقيبتها الجلد اللامعه ، ثم ألقت بجسدها إلقاء عليه ، تئن تحت أعباء الضنى المرير ، والجهد القاسى الذى ألقى بحمله الثقيل على كاهلها الرخو العمل الشاق ، الذى لا ينقطع ليل نهار .

وما إن أحست بدفء الفراش الوثير يتسرب إلى جسدها المكدود الخائر ، حتى أرخت ساقيها إرخاء ، ومدتهما مداً ، وألقت فى هدوء برأسها المضطرب على الوسادة الوردية . ثم دفنته بين راحتين دافئتين ، وأنامل غضة بضة لينة كأنها البلسم أولذة اللمس . ولكنها ما إن بدأت تحس بلذة الراحة يعيدها إلى جسدها الفراش الدافىء ، وبنعمة الهدوء ترده إلى نفسها الأنامل الحلوة ، حتى رأت نفسها على الرغم منها مكبة على مكتبها بين ملفات قضاياها تدرسها درساً ، وتقتليها بحثاً ، وتعد نقط الدفاع فيها . ثم هى بين الفينة والفينة لا ترفع رأسها وتلقى بالقلم لتستريح أو لتشرب فنجاناً من القهوة ، أو لتتناول غداءها الذى اعتادت أن تتناوله فى مكتبها ، من يوم عرف اسمها كمحامية ناجحة .

لا لم ترفع رأسها لشىء من هذا ؛ وإنما لتتناول من الدولاب المجاور مجلداً ضخما لدالوز فى الجرائم السياسية ، أو سفراً كبيراً لجارسون فى شرح القانون الجنائى ، أو لتتقبل جلفاً لا يريد أن تؤجل قضيته بأى حال ، لأن المعلم دكروزى العربجى أفهمه أن

التأجيل يضر بمصلحته . أو آخر يبلل يديها بالدموع ضارعاً متوسلا أن تؤجل قضية ابنه خشية أن يسجن قبل أن يتم زفافه بعد أسبوع، أو لتستقبل زبونا جديداً يقدمه إليها مرقص افندى وكيل مكتبها، وهو يغمز لها بعينيه من تحت منظاره الصدىء المتدلى على أنفه الطويل ، وكأنه يحدثها بلغة الشفرة عن أتعاب هذه القضية التى يسيل لها اللعاب .

ثم هى تريد أن تفرغ من كل ذلك سريعاً لتبحث بنفسها عن مسكن جديد غير تلك العمارة التى يضايقها فيها ذلك المهندس الشاب السمج الذى لا يريد أبداً أن يفرق بين المرأة التى تعمل والمرأة التى تحب . . .

بيد أنها تريد قبل كل هذا أن تخلو لحظة واحدة لنفسها تستعيد فيها قواها وتستجمع فيها نشاطها . ولهذا ألقت بالقلم ، ونحت الورق، ورفعت رأسها لتستمتع بمنظر الشمس الغاربه من نافذة مكتبها ، ولكنها بدل أن ترى الأصيل يخضب زجاج النافذة بأنفاسه الأرجوانية العابرة، رأت أمامها مرقص افندى يفتح عليها الباب بقدمه، لأن ذراعه المرتعشة كانت تنوء بالقضايا الضخمة يحملها على صدره المكدود . ثم تقدم إليها وألقى أمامها بالدوسيهات وهو يتنفس الصعداء ويتحسس بيده الواجفه لحيته القنفذية المشعثة ويتمتم :

— جلسة الغد ١٢ جنحه وسبع مخالفات .

فزوت ما بين حاجبيها وضغطت على أنيابها ، وبدت عليها

علائم الضيق ودلائل التبرم والامتعاض . ورأى مرقص افندى كل ذلك واضحاً ، رآه من خلف الأهداب الوظف الساجية ، فأعاد يده المرتعشة إلى ذقنه وتمتم :

ــ أمال يا أستاذه هى حاجه سهلة .

فيندى جبينها، ولكنها تتناول القلم وتهم أن تلقى برأسها الصغير بين الملفات الضخمة، لولا أنها تسمع صوتاً ليناً ، لولا شيخوخته ، متصلا ، لولا تهدجه ، يقول عند الباب :

يابنتى حرام عليك ، كل يوم تخرجى وش الصبح ، وترجعى نصف الليل . حرام يا بنتى ، صحتك ــ شبابك ــ بدنك .

ثم تعود الدادة من حيث أتت تلوك بين أناملها شيئاً فى مصفاة نحاسية سوف تعد منه العشاء لسيدتها .

وهنا تتنبه وتعرف أنها كانت تحلم مستيقظة ، فترفع رأسها وتستوى جالسة على حافة السرير تفكر فى استرخاء، وقد ألقت جيداً نافراً ، وأرسلت طرفها الحائر يبحث عن شىء ثمين عند موضع قدميها حيناً ، وأحياناً بين ثنايا الوجه الفاتن الذى يتألق أمامها فى المرآة ولكن من خلف سحابة شاحبة .

ومكثت كذلك زمناً تفكر فى أشياء أحست لأول مرة بلذة التفكير فيها . ودون وعى راحت تنزع عنها ثيابها ، ولكن رويداً ، وفى هدوء ، وعلى مهل أيضاً .

ولكن هذا الجفن المنكسر مابال فتوره الليلة يبدو هكذا رائعاً أخاذاً ؟ وحدقت فى المرآة طويلا .. وهذا الخد الأسيل المتورد ..

مابه . . إنه يبدو هذه الليلة أشد توردا . . أشد احمرارا . إنه يكاد ينصهر فوق الصفحة الرقراقة . . ما به ؟ . . إنه دم الشباب الثائر الفائر . وحدقت ثانية . وهذه الشفاه الممتلئة — وتلمستها — ما بالها تبدو الليلة فى انشقاقها كقوس قزح . . ما أمرها ؟ ما بالها تكاد تقطر دماً ، تتفجر ناراً ؟ إنها غيرى من الخد الأسيل . . أم أنها تشكو حرقة الظمأ ياجليلة ؟

وأسبلت هدبيها فى استرخاء قاتل . ثم عادت فنمتحتهما على شىء كالبللور أو هو أشد بياضاً من العاج .

وهذا الجيد الأتلع النافر مابه ؟ . و . و . ونزعت الثوب فانشق القميص عن ثديين طائشين . وصدر عريض متألق ، لولا تبرمه بطيش النهدين ، وضيقه بوهن الخصر الممروض الواهى ، لما فتر لحظة عن الابتسام . . ورأت غير ذلك أشياء . ورأت ما بهرها فى الجسد المتألق العارى . رأت أشياء زادها الجمال حياء فتوارت خجلا فى ذلة وانكسار . . وأخرى زادها الدلال تيهاً فبرزت فى دل واستكبار .

ولكن ما كل هذا الذى ترين ياجليلة . . ما هذه الكنوز التى تملكين . . ماهذه اللآلىء التى تتألق وتضىء ماحولها . . ما هذه الثمار التى نضجت وآتت أكلها ؟ . وانفرجت أساريرها فى ابتسامة عذبه وتمتمت :

— إنها لى . . إنها لى — وافرحتاه . . لا . . ؟ . وقطبت وزوت مابين حاجبيها . . لا ، إن الله لم يخلق المرأة لنفسها يا جليله . . ولم

يخلق هذا الجمال عفواً . . ولم يخلق هذه الثمار لتجف على عودها ، وتذبل على فرعها . . الله يا جليلة لم يخلق هذه الكنوز عبثاً ، وإنما خلقها لحكمة بالغة . حكمة قام عليها الوجود فى مجموعه وأوقف عليها الأزل جهاده ومجهوده . ولسوف تعلمين كل هذا يوم أن ترقبى عن كثب هذه الثمار وهى تتساقط جافة كأوراق الخريف ، وتسمعى لها كلما وطئتها أقدام الزمن أنين الثكل والترمل ، وهى تموت على جذع الشيخوخة البغيضة .

يوم ذلك تعرفين أن الله لم يخلق هذا الصدر إلا ليكون مهد الطفولة ، ولا هذا الثدى إلا ليكون نبع الأمومة ، ولا هذه الشفاه إلا لتطبع على جبين الإنسانية أطهر القبل . . ولا هذه العيون إلا لتلقن الناس آية الحب . لا ولم يخلق هذه الشجرة الفينانة وبسط لها هذا الظل الظليل الوارف إلا ليتفيأ به الرجل كلما لفحته حرارة الصحراء وأوهى قدميه قيظ الهاجرة و . ماذا ؟ قل . . قل . . ولمعت عيناها ورأت لها فى المرآة بريقاً نورانياً أخاذاً . وهمت أن تصغى ثانية إلى ذلك الصوت الساحر الهامس الذى ينسكب فى قلبها انسكاباً .

ولكن جرس الباب الخارجى دق وانساب رنينه فى أذنيها ، فأسرعت ومدت أناملها وجففت دمعة لؤلؤية انحدرت انحداراً على الخد المتورد فبلورته ، ثم تناولت بسرعة من فوق المشجب (روبا) فاخراً من الستان اللامع وارتدته ، وهمت أن تنصرف ، ولكنها رأت فى المرآة شيئاً جديداً استوقفها واستهواها ، فنسيت كل شىء إلا جسداً عارياً انساب كالموج فى الثوب الفضفاض الذى

غدا على الجسد كقطعة من الصوف لفت على مصباح باهر الضياء. فحجبت أوضاعه، ولكنها لم تحل دون إشعاعه. واستهواها المنظر، منظر المصباح الذى يحجبه الثوب. وشاقها الضوء. ضوء الجسد المتلألىء.

وهمت أن تلقى عنها رداءها، ولكن مرقص أفندى كان قد دق بيده المرتعشة على الباب، وهو يصلح من رباط رقبته الذى تأبى عقدته إلا أن تكون عند الكتف دائماً، وتمتم لا هثاً:

— تسمحى يا أستاذه نوصل لغاية القسم؟

فحدجته بنظرة خاطفة وتمتمت:

— القسم.. لماذا؟

— حاجه بسيطه! جريمة قتل. والمتهم قبض عليه وهو متلبس بالجريمة.

ثم رفع شعرة طويلة تدلت من شاربه على شفتيه وقال:

— حاجه سهلة نصف ساعة على الأكثر.

وهمت أن تقول له شيئاً ولكن أسرع هو قائلا:

— صحيح الوقت متأخر. ولكن.

ومد يده وقدم لها ورقة مالية كبيرة وعقب:

— معلهش يا أستاذه الشغل عاوز كده.

وانصرف مرقص افندى إلى القسم ريثما تلحق به لتحضر التحقيق. وقفلت هى إلى مخدعها فارتدت ثيابها فى تخاذل وضيق وتبرم لم تألفه من قبل. ثم دلفت من الباب الخارجى وراحت

تهبط الدرج فى استرخاء. وهى تلقى بساقيها إلقاء ثم تعود فتجرهما جراً..

وأحست بتخاذل ساقيها فوقفت عند الطابق الرابع تنتظر المصعد.. ومرت بها صدفة صديقتها جرمين التى تجاورها فى المسكن، وكانت تحمل على صدرها طفلها الصغير، الذى استلقى ضاحكا على صدر أمه يعبث بأنامله الحلوة بالثدى المستخفى خلف الثياب، فاستوقفتها وصافحتها، ثم أحست بشىء يجذب نظراتها جذباً نحو الطفل، فنظرت إليه ودققت فيه دون وعى، وتقدمت إليه وطبعت على جبينه قبلة عميقة أروت بها شفتيها الظامئتين، ثم دلفت إلى المصعد مضطربه منشغلة بشفتيها الراقصتين عن كل شىء.

وبعد حين وقف بها المصعد فشعرت بخطئها، وأنها استوقفته فى الطابق الثانى لا الذى تريد.

وهمت أن تضغط بأصابعها على زرمن الأزرار، بيد أنها رأت بعض السكان ينتظرونه، فخجلت وتركته لهم، وأخذت تهبط الدرجات القليلة الباقية..

ولكنها فجأة أحست بشىء يستوقفها ويشدها شداً إليه. ولكن ما هو هذا الشىء الذى استوقفها، الذى سمر قدميها، الذى جعلها تتلفت حواليها مذعورة مضطربة حيناً وهادئة مطمئنة أحياناً. إنها تراه. إنها تعرفه. إنها تهم أن تهتف به. أن تناديه. أن تطلبه. ولكن من هو؟ وما هو هذا الشىء الذى تريد. أهو حياتها. أهو وجودها. أهو دنياها؟ ومدت بصرها مداً. لعلها

تراه . لعلها ترقبه . لعلها تعثر عليه فتهدأ . فتستريح . فتطمئن . وفجأة على حين لفتة رأته . ورأته أمامها .

رأت وجهاً متطلعاً بساماً ، يضحك إليها ويكاد يلتهمها التهاماً بعينيه . فزوت ما بين حاجبيها ، وجحظت عيناها وراحت تتفرس فى وجهه ، وتنعم فى كل جارحة فية ، فى عينيه الواسعتين ، فى جبهته العريضة ، فى عضلاته القوية ، فى ساعده المفتول ، فى شعره اللامع . وانفرجت رويداً أساريرها ، وضحكت عيناها ، وهمهمت شفتاها ، وفتحت ذراعيها وهمت أن تلقى بجسدها المشتعل بين أحضانه . لتذوب فيه ، لتتلاشى فى صدره . .

ولكنها لم تجد أمامها غير (يافطة) نحاسية كتب عليها بأحرف بارزة (أحمد رمزى المهندس) فانذعرت وجلة ، وانسابت دموعها باردة . . وهمت أن تركض على غيروعى . ولكن قواها خانتها فلم تفعل . وإنما عادت تنظر فى اليافطه النحاسيه . وتتفرس فيها وفى اسم صاحبها . وفى الباب الذى ثبتت عليه .

وانقضت لحظة رهيبة قاسية ، مدت فيها بعد جهد مرير قاتل يداً مضطربة ، ودقت الباب دقا هينا . . !

وبينما كان الباب يفتح على مهل ثم يعود فيرتد سريعا ، كان مرقص افندى يؤكد للدادة فى التليفون أن الأستاذة لم تصل بعد ، وتؤكد له الدادة أنها إنما ذهبت من زمن بعيد . .

الفطائر الثلاث

ما ذهبت مرة إلى قريتنا ، واستيقظت مبكراً وفتحت نافذة غرفتى المطلة على طريق الشاطىء ، حتى تمثلت لعينى الطبيعة فى الريف كأنها غانية تحب ، تلك تضفى على حبيبها من عطفها وحنانها ما يجعل الحياة رطيبة إلى قلبه ، ندية إلى نفسه ، محببة إلى عينيه ، وهذه تولى الريف من جمالها ، وتغدق عليه من بهجتها ، ما يجعل سكانه يتصورون حياتهم سعادة دائمة وهناء مقيماً ، وكثيراً ما شاطرتهم تلك الحياة ، وغمرت نفسى فيها ، ورحت أنهل معهم من نهر الجمال تحت القبة الزرقاء .

الله أكبر .. الله أكبر .. ينبثق الفجر ، فينبثق معه صوت المؤذن مردداً الاسم الجليل ، مرتلا النداء الجميل ، بنغم عذب رخيم يسرى فى جوف الليل الساجى ، فتتجاوب له أصداء الكون مرجعة معه سر الخلود ، ورهبة الأزل ، وعظمة الخالق . ثم تخال الصوت وكأنه انسكب انسكاباً فى آذان القرية الوسنانة متسللا إليها من خلال أسجاف الضباب الطاهر الذى يكون قد اكتنفها ، ولفها بكسائه المندى بعطر السماء . فتحس بالحياة وقد دبت فى القرية من جديد ، فتسمع وقع الأقدام الهزيلة توقعها الكهول الفانية ، وهى تتسلل من الحوارى والأزقة مبكرة ، وتنساب فى طريقها إلى المسجد مبسملة مسبحة بحمد الله ، خالق النهار والليل .

وقبيل الشروق ، ترسل الديكة آذانها فيسحاب الصوت فى الوجود معرجاً على أفواف الزهر وباسقات النخيل وأفنان الشجر ، فتفيق النحلة ، وتمضى إلى الحشائش تمتص ورودها قبل أن يتطايرمن عليها الندى. فى حين تستيقظ العصافير ، وتنطلق مع الأطيار ترجع لحن الشروق الضاحك ، بينما تصدح موسيق الأطيار فيستيقظ على نغمها الساحر الصبح الجميل ، ويطل بوجهه المشرق على الكون الوسنان . ترى الغانيات متسللات بجرارهن ، منسابات كسرب القطا فى طريق الشاطىء الذى تحفه من الجانبين الأشجار الوارفة ذات الأغصان الثملة ، والأوراق المترنحة ، التى تمايلت وتعانقت ، ثم نامت منبثة بعضها فى بعض ، كعاشقين أمضهما الفراق ، وأنهكهما العناق ، وطال بهما السهر فاسترسلا فى حلم جميل .

ويموج الطريق من البكور بهذه العرائس الحسان ، وقد انتثرن فيه غانية تلو غانية حتى يبلغن (الموردة) ، فينتظمن حولها كالعقد النضيد ، ثم يلقين بجرارهن ويكشفن عن سيقانهن التى تبدو خيالاتها تومض على الصفحة ، كأنها قطرات لامعة من ضوء القمر . وفجأة تغوص هاتيك السيقان فى قلب النهر الذى يستقبلها فرحاً طروباً مداعباً ، يرسل الموجة تلو الموجة ، هذه تحتضن الساق فى حنو ، وتلك تضمها فى رفق ، وثالثة تأبى إلا أن تلثم كل موضع فيها ، وأخرى تمر من بين الاثنتين مارقة كالسهم ، وهذه هى التى يحذرنها ويستلقين لها ضاحكات ، لأنها فى اعتقادهن موجة خبيثة

ماجنة . ويمكثن كذلك حيناً يمرحن ويخبن لا يعكر صفوهن خيال طارق ، أو رجل سمج ، اللهم إلا الشيخ أبو النواظر الذى يقبل عليهن ، أو يخرج لهن من بين الأشجار بعصاه التى تبلغ قامته ، والحجر الذى يحمله فى يده دائماً ، يدق به على صدره العارى الأشعث دقات متوالية منتظمة ، وهو يردد مع كل دقة هذا النداء الذى لا يفتر يردده ليل نهار (الله حى ، . . الله حى . . . الله حى) وأحياناً يترك الاسم الأول ويردد الثانى بصوت سريع مرتفع ، وبينا الكلمات تتدهور من بين شدقيه ، ترى وجهه إلى السماء : وهو يدق ويهدر كالبحر الهائج وقد سال لعابه ، وانساب من بين شفتيه الضخمتين إلى لحيته المسترسلة فرسم على شعراتها المتباعدة شبكة متماسكة ، كتلك التى يرسمها الندى على أعشاش العناكب فى الشجر .

ويقال إن الشيخ أبو النواظر ولد كما هو مشوه الساقين ، معوج القامة ، ذا أنف عريض منبطح على فمه الكبير الذى شقت فتحته ثلثى وجهه ، وله ست أصابع فى اليد الواحدة ، وكذلك فى قدمه اليمنى . وإنه كذلك أيضاً من يوم أن جاء إلى الدنيا عيوفاً عنها ، زاهداً فيها ، هائماً فى حب الله على هذا الوضع من (الدروشة) التى قربته إلى السماء ، ومنت عليه بأن رفعت الحجاب بينها وبينه ، فأتى بالمعجزات وهو لا يزال فى المهد ، حتى أنه مرة سقط من أمه فى النهر ، ولم تتمكن من إنقاذه فغاص منها ، ولما انتشلوه أصيل

اليوم الثانى ، وجدوه بكامل صحته ينظر إلى السماء ، ويردد ضاحكا مستبشراً : « الله حى .. الله حى » ومرة أخرى أيقظ أمه من نومها وأرسلها إلى دار العمدة لتطفىء النار التى ستندلع فيها وشيكا. وفعلا شبت النار ، ولولا أمه التى كانت أول من شاهدها لدمرت القرية تدميراً . .

ومن هاتين الحادثتين وغيرهما ، لفت شهرته القرية والدساكر المجاورة ، وتبرك به أهلها ، وخلعوا عليه هذا اللقب ، لقب (الشيخ) الذى أضحى لا يعرف إلا به ، وبلغ من اعتقادهم فيه ، وتبركهم به ، أنه ما من إشكال يحدث فى القرية ، ويحضره الشيخ أبو النواظر إلا وتنحل عقدته ، وما من دار يدخلها إلا ويتسلل الخير فى أعقابه إليها ، وما من امرأة يحول حائل بينها وبين الحمل ، ويضربها الشيخ بعصاه على ظهرها ثلاث مرات إلا وحملت ، وما من جاموسة أو بقرة يشح لبنها ، ويمر بيده المباركة عليها إلا وتعود كما كانت ، تدر اللبن على الدار إدراراً .

ولكن أين هو . وأنى لهم به حتى يحل مشاكلهم ؟ ويبارك بُهمهم ويزيل عوائق نسائهم ؟ إنه دائماً على الشاطىء قد اتخذ من أشجاره مأوى ، ومن الحقول والمزارع المترامية مرتعاً فى الليل والنهار ، وكثيراً ما فعلوا المستحيل ليحملوه على البقاء فى القرية ، أو يجعلوه يبدل ثوبه البالى الممزق ، الذى يرتديه دون قميص أو سروال : فكان ينفر منهم ، ويركض بعصاه الطويلة خلف كل من يلح عليه فى طلب ، أو يمن عليه بعطاء . ولما يئسوا منه ، تركوه

لمشيئته يجوب فيافى الحقول طول الليل ، يدق بحجره على صدره ، ويقطع طريق الشاطىء مئات المرات فى اليوم الواحد ، ولا يهبط القرية إلا إذا هبط عليه الوحى ، وأذن له بذلك ، فيذهب إليها من تلقاء نفسه ، ويدخل هذه الدار أو تلك يبارك أهلها ، ويُطب نساءها ، أو يصيب منها شيئاً من الطعام ، والسكان حوله ، كأن زائراً كبيراً نزل ضيفاً كريماً عليهم .

وكان من عادة الشيخ أبو النواظر أن يلتقى بنسوة القرية كل صباح عند الموردة ، بل كن اللائى يلتقين به ، فما يكدن يرينه مقبلا عليهن ، وهن يغتسلن فى الماء شبه عاريات ، حتى يهرعن إليه ويعترضن طريقه ، ملتفات حوله ، مداعبات مازحات ، دون أن يحجبن ما بدا عاريا من جسومهن ، أو يخجلن من ثوبه الممزق الذى لاحت منه بعض أعضاء الجسد . وكثيراً ما كن يمزحن معه مزاحاً خارجاً أحياناً ، فيلمسن جسده العارى ، ليلمس جسدهن فيتبركن ويتبرأن من أمراضهن . ولكنه كان يضيق بهن ، ولا يتخلص منهن إلا إذا عمل بعصاه فى رءوسهن ، وهو يتمتم بعبارات غير مفهومة ، فيركضن متفرقات ضاحكات ، ما عدا نبوية التى كانت تقطع جفوة الشيخ لها نياط قلبها ، إنها تريد أن تستميله إليها ، أو بمعنى آخر تريد أن تستميل عصاه إلى ظهرها ، فقد مضى على زواجها ثلاث سنوات دون أن تنحل عقدتها وتنجب ، وقد فعلت فى سبيل ذلك الممكن والمستحيل ، حتى حلاق الصحة ذهبت له ، حتى حكيم البندر ترددت عليه ، حتى الفأر الجبلى أتت به وذبحته

ولوثت بدمه فراش زواجها ، كل ذلك دون جدوى . إن الشيء الذى يفيد حقاً كما حدثوها ، هى عصا الشيخ . ولكن هذا الشيخ ، كما يقولون عنه ، لا يضرب النساء بعصاه إلا إذا هبط عليه الوحى ، فمتى يهبط هذا الوحى ؟ وما الذى يجعله يهبط ، هذا ما كانت نبوية تفكر فيه ، وتبكى منه أحياناً ، وتتحسر عليه دائماً . ولكنها لم تيأس .

وهداها تفكيرها إلى ضرورة متابعته فى كل مكان ، والتزلف إليه ، وبثه شكواها بلسانها ودموعها حتى يلين لها ويرثى لبلواها ، ويتعجل هذا الوحى الذى يأذن له بضربها ، وفعلا راحت تطارده فى كل مكان ، وتستيقظ مبكرة وتذهب إلى الشاطىء قبل أن يؤمه أحد ، وتجلس إليه الساعات الطوال ، تئن وتتوجع ، وتنزف الدمع السخين ، وهى تشكو إليه حظها العاثر ، وبختها المائل ، وكيف أن زوجها سيطلقها ، وبذلك توقد ضرتها المشاعل ، وتدق طبول الفرح ، بينما تنزوى هى فى ركن مظلم من أركان الخيبة . كل ذلك وهو منشغل عنها بالتطلع إلى السماء ، وبالحجر الذى يدق به على صدره ، اللهم إلا لحظات يحول وجهه إليها ويكتنفها بعينيه ، ثم يعود كما كان مردداً بسرعة منتظمة (الله حى .. الله حى) فى حين تتتابع دقات صدره ، فتتركه وتنصرف على أن تعاود الكرة مرة أخرى .

وحدث ذات ليلة ، بينما كانت عائدة من الحقل ، أن خرج عليها الشيخ من بين الأشجار واستوقفها ، أو هى التى استوقفته ، ولما عرفها أشاح بوجهه عنها ، فظلت به تترضاه ، وتتمسح به ، وتتوسل إليه ، إلى أن تنازل ومد يده إلى المكتل الذى تحمله

على رأسها . وكان به بقايا عشاء زوجها المقيم عند الساقية ، فعلمت أنه يريد أن يأكل : وضايقها أنه لم يلتق بها وهى ذاهبة ، فكانت تعطيه كل ما تحمل ، ولكنها استوقفته ثم أسرعت تركض إلى الدار ، ومكثت غير بعيد ثم عادت تحمل إليه بعض صنوف الطعام الشهى ، وجلست أمامه ، وهو يأكل ، وضحكات قلبها تكاد تهز الأرض الجالسة عليها ، لأن الشيخ أبو النواظر رضى عنها ، وأكل من طعامها . وفرغ من أكله فنظر إليها واقترب منها ، حتى كاد يدانيها ، ومد يده وربت بها على كتفها ، ثم تناول عصاه وحجره ، وتوارى فى المزارع خلف الأشجار يردد دعاءه .

وأخذت هذه الحادثة تتكرر كل يوم ، ففى وقت معلوم من الليل ، تتسلل نبوية إل المزارع ، حاملة على رأسها بعض ألوان الطعام الذى تنفق يومها فى صنعه ، وتختلسه من الدار اختلاساً ، وتحرم نفسها وزوجها منه ، حتى تلتقى بالشيخ ، وتقدمه إليه ، وتجلس قبالته حتى يأكله ، ثم تتكرر نفس العملية ، ينظر إليها ، ويقترب منها ويربت على كتفيها وينصرف . إلى أن سألته ذات ليلة متى ستحل عقدتها ، فابتسم ضاحكا ، وأسرف فى مداعبتها وفى الحنو عليها ، ثم مد يده ومر بها على رأسها الصغير وهو يتمتم فى همهمة : « بكره . بكره . بكره » ، ثم تناول عصاه وحجره ، وغاص منها فى الظلام . وانصرفت نبويه إلى دارها ، وهى أشد النساء فرحاً وغبطة . ألم يرض عنها الشيخ أبو النواظر ؟ . ألم يمر بيده الطاهرة على رأسها ؟ . ألم يعدها بأنه غداً سيحل عقدتها ويقضى حاجتها ،

وبذلك تلد وتكون من السعداء ؟. إنها ستلد ولداً . لا بل أولاداً يملأون عليها الدار ، وتكيد بهم العذول ، ضرتها الخبيثة .

ولم تنم تلك الليلة من شدة فرحها إلا لماماً ، وكلما غفلت لحظة ، رأت الشيخ أبو النواظر وهو ينهال بعصاه على ظهرها ، وهى مستسلمة له ضاحكة ، ثم ترى مرة أخرى زوجها وقد أقبل عليها معانقاً ، فندفعه عنها بيديها فى غبطة ، مشيرة إلى بطنها المنتفخ الذى يوقظ مجرد لمسه النونو النائم فى ساحته . انقضى الليل ، فتسللت مبكرة من الدار بعد أن دست فى كمها ثلاث فطائر ، كانت قد انسرقت فى الليل وصنعتها سراً لتقدمها إلى الشيخ عندما تلتقى به هذا الصباح . وذهبت إلى الشاطىء قبل أن يذهب إليه أحد ، ولكنها لم تهتد إليه ، أين هو ؟ . وأين ذهب ؟ . قد يكون عند الساقية القبلية ، أو عند الصفصافة ، أو مستلقياً على جسر الصرف البحرى ، أو نائماً فى حطب أبى دياب . وراحت تطوف هذه الأماكن جميعاً وتبحث عنه ، وهى تتعثر فى خطواتها وسط المزارع حيناً ، وتغوص أقدامها فى الوحل أحيانا . وتسقط فى تلك أخرى ، وكل همها أن تجده لتعطيه الطعام الذى تحمله لتشعره باهتمامها به ، ولما أعياها البحث عنه ، قفلت راجعة ، حزينة ، مكتئبة ، وقد رادتها فكرة لعينة كاد قلبها ينفطر لمجرد التفكير فيها . ربما يكون الوحى قد هبط عليه وأمره بمغادرة القرية إلى جهة غير معلومة . ألا ما أتعسها ، وأنحس حظها .

وكانت قد بلغت المكان الذى تركت جرتها فيه ، فتناولتها من

قلب المصرف ، وانصرفت محزونة مخترقة حقل أبى دياب فى طريقها إلى القرية ، تدفع بيدها المقرورة أوراقه المائلة ، وتفسح لنفسها الطريق الملتوية ، ولكنها لم تمش سوى خطوات قليلة ، حتى توقفت عن السير مصغية ، فقد سمعت صوتاً ينبعث من مكان قريب منها ، وما كادت تصغى إليه وتتبينه ، حتى انفرجت أساريرها وهزتها نشوة عارضة ، إنه صوت الشيخ أبو النواظر ، ثم أصغت ثانية ، إنه هو يا نبوية ، ولكن ماله يخور هكذا كالثور الهائج ، ويتنمر كالكلب المسعور ؟ ! .

ترى هل أصيب بسوء ، أو لحق به مكروه ؟ . ترى هل التقى به الذئب الكبير الذى يتحدثون عنه فى القرية ، والذى فتك بابن الشيخ عبد الصبور ؟

وما إن خطر لها هذا الخاطر حتى ألقت بالجرة على الأرض ، وانطلقت تركض كالمجنونة ، غير مبالية بأعواد الأذرة التى تتقصف ولا بأطارفه التى تلطم وجهها حتى كادت تدميه ، وما إن بلغت مصدر الصوت ، وتبينت صاحبه حتى ارتدت صارخة مشدوهة ، حاجبة وجهها كله بذراعيها لكى لا ترى الشيخ أبو النواظر ، الذى كان يبارك إحدى النساء ، وهو ناشب أظافره الطويلة المعوجة فى رأسها ، ليتمكن من هصر جسدها العارى المختبىء فى أحضانه .

* * *

شىء واحد هو الذى استوقفها قبل أن تبلغ الدار . ذلك أنها رأت فى طريقها كلباً نائماً ، فتقدمت منه وحدقت فيه ، ثم مدت يدها وألقت إليه بالفطائر الثلاث ..

الخاتمة

ذهبت لتغلق النافذة بعد أن نظفت الغرفة ورتبت أثاثها ، فإذا بها تراه وهو يغادر المركبة التى أقلته ، ويجتاز مدخل الحديقة وهو ينظر إلى الدار كأنه يتلهف إلى بلوغها ، وما لبثت أن رأته حتى تراخت قواها ، واضطربت أعصابها ، وصعد الدم إلى وجهها فجأة ، وتتابعت أنفاسها حارة ملتهبة ، حتى كأنها تكاد تشعل قلبها ، وتحرق صدرها ، وتصهر ماعليه من ثديين جميلين لم يكتمل تكوينهما إلا منذ أيام .

إنه يعود الآن إلى الدار فجأة وعلى غير عادته ، مع أنها لم تلحظ عليه أنه ترك المدرسة يوماً وعاد إلى الدار طيلة الشهور الستة التى قضتها فى خدمتهم .

وهو أيضاً لم ينس شيئاً أتى ليأخذه ، فلو كان ذلك لأبقى المركبة التى أقلته . وفضلا عن ذلك فهو لم يعد ليتصل بأحد من أفراد أسرته ، لأنه يعلم أن الأسرة جميعها ذهبت هذا اليوم إلى رحلة قصيرة فى الريف . .

إذن هو يعلم أنها وحيدة فى الدار . . .

وإذن هو يجىء من أجلها . .

وإذن هو يريد منها شيئاً . . ومن يدرى ربما أشياء .

أتراه كان يتحين الفرص حتى واتته هذا اليوم ؟ أتراه كان يتحينها بصبر نافد ، وقلب واجف ، وشوق ألهب فؤاده إلهابا ، وأحال بشرته النضرة إلى هذا الشحوب ؟

لابد أن يكون ذلك .

ولكن ماذا تعمل ؟ .

إنها ستخيب رجاءه بلا شك . إنها ستجعله يرجع من حيث أتى يرزح تحت أثقال الخيبة . إنها لن تجعله أبداً ينال منها شيئاً .

ولكن . ولكن ماذا ؟

ولكن ماذا يكون موقفها لو باغتها فجأة ، وهصر غصنها الرطيب بساعده القوى .. ؟

أتستطيع أن تدافع ؟

وهل إذا دافعت تستطيع أن تصمد له . تستطيع أن تتغلب عليه ؟

وإذا لم تستطع ماذا يكون ؟

أتستسلم ؟ أتستكين ؟

ترى ماذا يكون إذا استسلمت ؟ ترى ماذا يحدث إذا استكانت ؟

وبرقت عيناها واتسعت حدقتاهما . .

لا . . لا . . هذا لن يكون . هذا لن يكون . ولن يحدث .

ومع ذلك فمهما حدث فاللائمة لاتقع على أحد سواها ، فلو كان لها مرونة أترابها ورجاحة تفكيرهن ، أو لو كانت تعرف ولو اليسير من لغة العيون ، لتبدل موقفها الآن ، ولاستطاعت أن تنجو بنفسها و بغصنها الميادو ثماره الدانية من مخالب هذا الشاب الثائر الأرعن ، الذى لايعرف الهوادة فى جنى الثمار . وليس ذلك فحسب ، بل لاستطاعت أيضاً أن تتجنب الوقوع فى هذا الشرك

الذى أعده لها الفتى الممتلىء قوة وحمية ، الممتلىء نضرة وشباباً .

لقد كان يجب عليها أن تعرف ذلك من زمن بعيد . أو على الأقل من ليلة البارحة ، حينما تعمد وهو على المائدة أن يطلب منها كوبة ماء ، وتعمد أن يلمس أنامله بأطرافه الملتهبة ، وهو يتناول منها الكوبة ، ويغمز لها بعينيه . ما أجهلها . لقد كان يقول بعينيه : غداً ستخلو الدار وسأترك المدرسة ، وآتى إليك لنقضى تلك السويعات التى تعدل العمر . ولكنها جهلت ما قال وما تحدثت به عيناه . . وإلا لكانت على الأقل غادرت الدار هى الأخرى ، وأفسدت عليه خططه . .

وها هى تسمع وقع أقدامه على السلم وهو يصعد فى تخاذل وبطء حتى ليكاد يعد درجاته درجة درجة .

ولكن لماذا هذا التخاذل والبطء ؟ . لماذا لم يقفز الدرج قفزاً ؟ . إنه يفكر فيها . . فى أمر هجومه عليها . كيف يحاصرها . كيف يطوقها . ثم كيف يبدأ هجومه عليها بعنف ، سادا ثغرها بثغره . . ومعطلا يدها بيده . وضاغطاً على صدرها بصدره . .

ولكنها سوف تكون يقظة حذرة . سوف لا تمكنه أبداً من الاقتراب منها أو ضمها إليه . أو حتى تقبيلها . لأنه إن فعل ربما باغتها فجأة ، وحملها على صدره فتتراخى قواها ، وتخور عزيمتها . . ومن يدرى ربما .

وها هو جرس الباب ينساب رنينه فى أذنيها ، وها هى كل جوارحها تتفتح لهذا الرنين شيئاً فشيئاً .

ولكنها تختفى خلف أسجاف النافذة ، فهذا هو أسلم الأشياء إليها . ولكن الجرس يعاود رنينه العذب فيهتز له كيانها كله .

بيد أنها تحرص كل الحرص على الاختفاء ، فتمد يدها لتلف الأسجاف على كل شيء فيها .

ولكن بعد أن سبقتها قدماها إلى الباب . وفتحته .

* * *

وما لبث أن رآها حتى أمسك ذراعها بيديه وضغط عليها . وهاهو يضغط . ويضغط حتى ليكاد يخنقها . وهاهو يسير بجوارها وكأنه يتوكأ ملقياً نصفه الأعلى على كتفها ، وهى تسير بجواره شبه مستسلمة حتى يدخلا الغرفة ، فيلقى بنفسه على أول مقعد يقابله ويحاول خلع ثيابه .

وبدأت تفكر فى الفرار ، ولكن لا من الغرفة فحسب ، بل من الدار كلها . وهمت أن تنصرف ، ولكنه فاجأها بأن طلب منها أن تعد له (البيجاما) تعد له البيجاما . . ؟ !

إذن هو . بل لا . بل لا بد . بل من غير شك لم يطلب منها هذا الطلب إلا ليمنعها لحظة من مغادرة الغرفة ريثما يفرغ من ثيابه ، ثم يبدأ هجومه الخاطف العنيف الذى لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ، الذى لا يفرق بين ما يبيح وما يحرم ، بين الصلب واللين ، بين اليابس والرخو .

إذن فالعاصفة على وشك الهبوب . وها هى بوادرها تبدو من ارتداء هذه البيجاما البيضاء الرقيقة ، وانطراحه على السرير

تاركا شعره اللامع تنهدل خصلاته الطويلة على الوسادة .

واستطاعت بعد جهد أن تهدىء من روعها ، وتحول وجهها ناحية الباب لتفكر جدياً فى الفرار . غير أنه أراد أن يتحدث فى التليفون ، فأشار إلى المنضدة الصغيرة التى وضع عليها التليفون بجانب الباب ، وطلب تقديمها إليه ، ولكنها لم تفهم .

إنه يطلب منها أن تغلق الباب ، تغلق الباب .

ولكن كيف يكون ذلك ؟ وماذا يكون بعد أن يغلق الباب عليهما ؟ بعد أن يغلق على فتى ثائر وفتاة مكتملة الأنوثة ناضجة الثمار ؟

وبرقت عيناها واتسعت حدقتاهما .

لا . لا . هذا لن يكون . هذا لن يكون . ولن يحدث فلووقف الأمر مثلا عند قبلة واحدة . أو حتى قبلتين . أو قبلات ليس وهان . ولكن ربما لا يقف عند هذا الحد . ولا بد أنه سيتعدى هذه الحدود .

إذن فهى لن تسمح له بشىء مطلقا — لا بغلق الباب . . . ولا بالاقتراب منها ... ولا حتى بقبلة صغيرة ، وإن لم تحدث ذلك الرنين الذى يكون عادة عند التقاء الشفتين . . !

لا ، لن تسمح له بشىء من ذلك حتى ولو أدى بها الأمر أن تفتح النافذة وتستغيث ، أو تنزع هذا المشجب من على الحائط وتغرس أطرافه المدببة فى رأسه ، فما كان أبداً لثمارها أن تجنى على هذا الوضع . . .

ولكن ذراعها اليمنى التى مسها تيار أنامله منذ لحظات تمردت

عليها ، وتقدمت على الرغم منها إلى الباب وأحكمت رتاجه الداخلى.

ومع ذلك فهذا لن يوهن من عزمها . . . ولن يوهن . . . فستدافع وتدافع ولو بذراع واحدة.

وحانت منها التفاتة عارضة إلى الدولاب المقابل فرأت نفسها فى مرآته الكبيرة . . . ووقع بصرها على شعرها النافر ووجهها الثائر . . . وثغرها المتورد الدقيق الذى يراد لثمه الآن فى هدوء . . أو تقبيله فى ثورة وعنف ، فتفرست فى كل هذا . . وأدهشها جمالها الفاتن الذى لم تفطن إليه قبل اليوم . . . وأرادت فى المرآة أن تعمل مقارنة بين جمالها وجماله . . . بين ثغرها وثغره . . ووجهها ووجهه . . . وشعرها وشعره . . . ولكن هالها أن ترى شيئا لم تفطن إليه أبدا . . ذلك هو ثوبها الرقيق الممزق الذى تعودت أن ترتديه كلما همت بتنظيف البيت ومسح البلاط وغسل آنية المطبخ. ورأت بعض ثقوبه . . . ورأت شيئاً يشبه العاج . . . أو هو كالبلور يبدو من بين الثقوب التى اتخذت لهاسمت النجوم فى جسدها.

وهالها أن ترى ثقباً واحداً صغيراً كان من الدهاء والمكر بحيث ثبت نفسه فى مكان ما من الصدر . . . فلم ترض به ولم تقبل وجوده . ولن تسمح لأحد ولا حتى هو أن يرى مابداخله أو مايبديه .. ولذلك أسرعت بإخفائه براحة ذراعها الثائرة المتمردة ، غير أن أناملها اللعينة عبثت بالثقب ووسعت شقته على الرغم منها .

وثارت ثائرتها على أناملها الماكرة الخبيثة ، فأخفتها بالذراع كله عند ظهرها ، وبقى الثقب فاغرا فاه على لؤلؤة ثمينة بين فكيه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل استطاعت الذراع الغادرة وهى فى مكانها من الظهر أن تجد ثقباً آخر فى موضع لا يقل خطورة عن الموضع السابق، فأغرت به الأنامل وظلت تغريها وتغريها بأشياء حلوة . . . حتى عبثت به ووسعت شقته أيضاً . . وعلى الرغم منها مرة ثانية . . .

ولاحظ هو أنها لم تفهم إشارته السابقة إلى التليفون ، فأشار إليها مرة أخرى لتقترب منه ليفهمها . .

تقترب منه ؟ . . . تقترب منه ومن السرير بطبيعة الحال . . .

ولماذا يكون هذا الاقتراب . . ألينفذ خطته الموضوعة . . . ويبدأ هجومه الخاطف العنيف فى هذه الساحة الضيقة المحدودة ، حتى لا تتمكن من الانسحاب فترفع يديها مستسلمة . .

لن تتقدم إليه . . . ولن تصغى إلى إغرائه أبداً . . . مهما كان ومهما حدث .

ولكن ذراعها الباردة المتراخية التى لم يمسسها شىء من اللهب ، كذبت هذا الزعم ، وهمست فى « عقلها » :

تقدمى ولا تخافى . . سأدفعه عنك بعنف . . وسأصفعه على وجهه إذا أدى الأمر . . أو أحمله وحدى وألقى به من النافذة .

وما إن شلت ذلك الذراع الثانية التى أعلنت تمردها عليها ، وأغلقت الباب ، حتى ابتسمت وكذبت زعم زميلتها البلهاء ، وهمست فى (قلبها) :

أما أنا فسأضمه برفق ، وأربت على كل موضع فيه .

ولمس ثوبها غطاء السرير، فأشار إليها إشارة واضحة إلى المائدة التى وضع عليها التليفون بجانب الباب، وطلب تقديمها إليه.

ولكن لمن يريد أن يتحدث ولا سيما الآن... ومن الذى يريد أن يحدثه ويتحدث إليه.. وفى هذه اللحظة الهائلة.. هذه اللحظة التى ستضع حدا لحياة وتكون نقطة تحول فى دنيا.

آه... إن الساعة الآن قد بلغت الثانية عشرة تقريباً، وهو يعلم أن الطاهية صحبت الأسرة فى رحلتها إلى الريف. وليس فى الدار من الطعام الشهى شىء... وهو يريد أن يتناول غداءه معها اليوم، وهى بجواره على المائدة... ولكن هل لا يتناول الطعام إلا على الموائد... ولماذا لا يكون مثلا فى حجرة النوم، أو على حافة السرير... أجل على حافة السرير وهما يلعبان، ويتبادلان القبل... ولماذا لا يكون هذا تجديداً فى تناول الطعام، مادام يراد فى هذا اليوم قلب جميع الأوضاع، ولو بالطرق غير المشروعة أو المألوفة... ولماذا لا تشير هى عليه بذلك كله إن لم يفطن إليه.. بل ولماذا لا تحدد هى أنواع الطعام الشهى الذى يريد أن يأتى لها به من الخارج.

إنها فى هذا اليوم سيدة البيت الآمرة.. فلماذا لا تأمر وتنهى، تأمر صاحب المطعم أن يأتى لها بما تريد.

إنها تريد فى هذا اليوم أن تأكل بعضاً من أنواع الشواء.. فيجب أن يكون من بين الطعام الذى يقدم بعض شرائح الضأن، ولحم الدجاج.. وبعض آخر من صدر (دندى) سمين.

أما أنواع الحلوى فستطلب أن يقرأ عليها أصناف مايوجد ، وعسى أن يكون من بينها ذلك الصنف اللذيذ الذى تمنت سيدتها أن تأكله ولم تنله . . . والذى يأكله الملوك ويسمونه « مهلبية بصدر الدجاج » .

لابد أن تطلب هى كل ماتريد أن تأكل . . وفى هذا بالطبع كل سروره ، أليس فيه بعض البذل منها . .

ومن يدرى ربما كل البذل .

وقدمت إليه المائدة الصغيرة ، وناولته سماعة التليفون ، وتعمدت هذه المرة أن تلمس أنامله التى أحست بالتهابها .

ووقفت ملتصقة بجواره ، وانتظرت حتى إذا ماردت إدارة المطعم ، التقطت السماعة من يده ، كما ستلتقط القبلة من فمه .

ولكنها بدلا من أن تسمع ذلك الصوت الجهورى الحبيب إلى نفسها يتحدث وينساب فى قلبها ، كما انساب رنين الجرس فى أذنيها منذ حين ، سمعت صوتا آخر ضئيلا مرتعشاً لايكاد يصل إلى أذنيها من شدة اختناقه ، ولذلك لم تستطع أن تتبين منه سوى هذه العبارات المتقطعة المحمومه :

— آلو . . . صلاح . . . أغثنى بدكتور . . . أكاد أختنق . . . أكاد أموت . . . لا ، فى البيت .

خواتم فی اُصابعہٖ

كانت مشكلة السكن عند ما ذهبت إلى المنصورة من كبريات المشاكل التى شغلت بالى . فقد ألفيت أجور المساكن مرتفعة إلى حد يضايق حتى ذوى النعمة واليسار ، فما بالك بموظف حديث مثلى كل مرتبه لم يتجاوز سبعة جنيهات ، وعليه أن ينفق منه على نفسه وعلى أسرته الكبيرة التى تعيش فى الريف ، والتى لم يكن لها سواى ، أنا الذى لا أملك من حطام الدنيا أكثر من سبعة جنيهات تتصدق علىّ بها الحكومة نظير قطرات من دمى أنزفها أثناء العمل المتواصل ليل نهار . ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أسكن بأكثر من جنيه ، كما أنى لا أستطيع أن أنفق على نفسى بعد ذلك أكثر من ثلاثة جنيهات ، لأن الثلاثة الباقية كانت تنتظرها أمى كل شهر بصبر نافد ، لتدفع بها عادية الجوع عن صغار خمسة مات أبى وخلفهم لها وسط الصحراء ، لا ماء ولا شجر .

بيد أن الله لم يشأ أن يطول تعذيبى ، وأن تمتد بى تلك الأيام التى كنت لا أتناول فيها سوى كسرة جافة من الخبز لأستطيع أن أدفع أجر نومى على سرير من الجريد فى لوكاندة الزهور بشارع السماكين خلف ديوان المديرية . فقد تعرفت بماسح أحذية طيب القلب ، ما إن بثثته شكواى حتى أشفق علىّ ورثى لحالى . وكان شهماً كريماً فقد جاءنى مع ظهر اليوم التالى ، وأنا مكب على عملى فى مكتب التموين ، وهو يتصبب عرقاً ويلهث إجهاداً ، وناولنى مفتاحاً وهو يقول :

— مبسوط يا سيدى ونقلت لك العفش كمان .

وهنا لمعت عيناى وانفرجت أساريرى ، وفرحت فرحاً لا يقدر ، وخصوصاً لما عرفت قيمة الإيجار ، وهى نصف الجنيه فى الشهر .

وتاب الله علىّ من لوكاندة الزهور وصاحبتها الحاجة زبيدة ، التى كانت لا تفسح لى الطريق كل صباح إلا بعد أن أدس فى يدها الستة القروش أجر السرير .

وذهبت إلى مسكنى الجديد فى حارة الشوادفى فى حى الحوار . وكان مسكناً متواضعاً كأجره ، دورة مياه أشد إظلاما من الليل ، وغرفة واحدة كأن متاع بانيها كان أشد تواضعا من متاعى ، فهى لم تسع سوى سرير صغير وكرسى من القش ، ومشجب لم أجد له مكاناً إلا بعد أن أغلقت ضلفة من الباب على ألا تفتح أبداً . ومع ذلك لست أدرى كيف أن الطابق الثانى كان فسيحاً تقطنه أسرة من الأسر ، غير أن تعزيتى الوحيدة هى أن غرفتى كانت لها نافذة تطل على مقهى ، كانت فى الأصل اصطبلا للخيل ، ثم حوّل إلى مقهى به عدة كراسى وترابيزات متآكلة . ودهنت واجهته بالبوية الحمراء والجير ، وكتب عليها بالأزرق بخط يماثل فى التوائه الخط الكوفى - قهوة الأحبة والإخوان . لصاحبها المعلم خليل الدهشان - وكان هذا المقهى هو منتدى الحى كله ، تتجمع عليه فى الصباح كهوله وشيوخه يسمرون ويشربون « الحمى » وهم يستمعون إلى الشيخ هندومة بائع اللب ، وهو يقرأ لهم فى سيرة الزناتى خليفة ،

وما وقع له مع ناعسة الأجفان . وفى المساء ترى فتيان الحى وشبانه يجتمعون عليه فى ثيابهم البيضاء النظيفة ، ويتراصون فى شبه دائرة يشربون المعسل ويحبسون بالشاى الأسود والقهوة السادة ، وهم يصغون للصفتى مطرب الحى وهو يغنى لهم على الأرغول مواويله « الحمر » التى كانت تستعاد بين التصفيق والتهليل . . ولا سيما إذا غنى لهم موالا محبوباً عندهم كانوا يطلبونه بالذات ويلحون فى طلبه إلحاحا :

طالع فوق شواشى الجبل اسمع نغم بالليـــل
عشق البنات البكاره هد منـــا الحيـــل

وكان من بين رواد المقهى رجل يمتاز بطوله الشامخ ، وعضلاته القوية ، وساعده المفتول ؛ تلحظ قوته من مجرد النظر إليه ، ويساره من رؤية هندامه الجميل المنسق ، وشعره اللامع الذى أظهر « فرقه » المعوج من تحت طاقيته الشبيكة البيضاء ، وجلبابه السكروته الذى يعنى بكيه دائما ، والذى خاطه على طريقة تظهر عضلات جسمه القوية ، فالأكمام أوسع مما يجب بحيث أنه إذا صافحك تستطيع أن ترى الوشم الذى حلى به الذراع كلها . وأما صدر الجلباب فقد اتسع أيضا بحيث يكشف عن نصف الصدر الفخور بعضلاته البارزة ، المدل بالوشم الكبير الذى نقش عليه ، والذى يصور أسداً مفترسا يسحق بمخلبه ثعبانا هائلا ملتويا ، يشبه فى التوائه السلسلة الذهبية الفخمة التى حلى بها صدر الجلباب ، والتى تشبه فى لمعانها وانعكاس ضوئها الخواتم الأربعة الكبيرة التى

زان بها أصابعه ، فاليد اليمنى قد زانها خاتم كبير ، وآخر أقل منه حجما ، أحدهما فصه من العقيق الخالص ، والثانى من الياقوت البراق . واليد الثانية قد خنق بنصرها بخاتم كبير الحجم ، جعل فصه من الذهب يختلف لونه عن الذى صنع منه الخاتم ، وبجانبه فى الخنصر خاتم على هيئة ثعبان كبير ، رأسه من الماس الذى يبهر بريقه الأبصار .

وكان هذا الرجل مرهوب الجانب قوى الجاه ، يتمتع باحترام جم لا مثيل له ، بحيث أنه إذا أقبل يتهادى فى الحى أفسح له الطريق ، وقام الناس إجلالا واحتراما ، وراحت العيون ترمقه فى وجل ، وتترضاه فى انكسار ، حتى إذا ما أقبل على المقهى قام له الجميع يستقبلونه فى خضوع ، ثم هم لا يجلسون إلا إذا جلس ، ولا يتحدثون إلا إذا تحدث ، وكانت له فى المقهى ترابيزة خاصة به لا تستعمل إلا له ، ومقعد خاص مغطى بالقطيفة الحمراء عندما يقبل يهيأ له فى الحال ، وما إن يجلس حتى تعد له الجوزة الفضية ذات النقوش المختلفة ، وزهرية الورد الفخار المزخرفة التى يحرص صاحب المقهى على تنسيقها ليضعها أمامه بمجرد حضوره ، ثم يجلس مختالا مزهوا يشرب المعسل فى الجوزة الفضيه ، ويستنشق رائحة الزهور الجميلة ، والأتباع من حوله ينظرون إليه ، وكأنهم عبيد أذلاء يتطلعون إلى سيدهم العظيم .

ولفتت نظرى كل هذه الأشياء ، فسألت سلامة ماسح الأحذية فنظر إلى مندهشاً ، وكأنه يرمينى بالبلاهه والجهل ، إذ كيف يوجد

فى المنصورة بأسرها من يجهل « الأفندى » فتوة الحوار ، وميت حدر ، والشيخه عيشة . وتمثلت لذهنى معنى الفتوه مقترنة بشخص صاحبها العملاق وعضلاته الفولاذية ، فشعرت بشىء من الاضطراب تضاعف رويداً ، وسرى فى فرائصى ، ولاسيما عندما أقنعنى سلامة بجهلى المطبق ، إذ كيف لا أعرفه وهو رغم هذا يسكن معى فى بيت واحد مع زوجه التى أبى أن يتزوجها إلا بعد أن قتل الثلاثة الذين كانوا يطمعون فى الزواج منها . وهنا لمعت عيناى وارتعدت فرائصى ، وخشيت أن يلاحظ سلامه ذلك فتركته وانصرفت أفكر جدياً فى ضرورة ترك هذا المنزل ، بل والحى كله ، حتى ولو أدى بى الأمر أن أرجع ثانية إلى لوكاندة الزهور وصاحبتها الحاجة زبيده ، لأنى والحمد لله من الذين تروعهم طلعة فأر صغير ، فما بالك بهذا الذى ترتاع القلوب من طلعته . غير أنه حدث فى اليوم التالى أنه بينما كنت فى مكتبى ألهث إعياء ، ومن حولى الناس متراصون وكأنهم فى يوم الحشر ، يتضرعون ، لا إلى الله ، ولكن إلى يدى التى توزع عليهم تصاريح الأقمشة الشعبية ، أن رأيت امرأة ، ما إن وقع بصرى عليها حتى جحظت عيناى ، وكأنهما شدتا بحبل إلى جمالها الفارط الذى لم أشهد مثله فى حياتى . وما إن رحت أنعم فيها النظر حتى شعرت بهزة عنيفة تجترفنى إليها ، وأنا أرقب عن كثب قوامها الفارع الممشوق ، الذى انساب كنور الفجر فى ملاءة سوداء لامعة ، غدت فى إحكامها على الجسد الفتى المتبلور كظلمة الليل عندما تضرب غياهبها حول مصباح باهر

الضياء . وعدت وفتحت عينى ، ولكن على صدر عريض منبسط كاد يبدو عارياً ، لولا أن الكردان الذهبى الكبير الذى التف حول العنق العاجى المشرئب قد تدلت سمكاته الذهبية فغطت الصدر ، وراحت تعبث بالثديين النافرين حيناً ، وتغوص أحيانا فى الجدول المترقرق الذى بينهما . ورأتنى أنظر إليها فرنت إلى بعينين انشقتا على بياض خاطف لاح فجأة من بين هدبين طويلين ، وجفنين منكسرين ، خلتنى أرى سحرهما وهو يتدفق على نونتين تغوران فى الخد كلما تبسمت ، كأن الله أوجدهما لتكونا نبع السحر الذى يتدفق من عينيها . ثم أقبلت على تتهادى فى خطوات مترنحة كقلبى حتى دانتنى ، ثم مالت على وهمست فى أذنى بصوت كأن رقه همسة حفيف زنابق بللها الطل ، وقالت :

— مش حضرتك اللى ساكن معانا فى البيت ؟

فقلت وأنا أنظر إليها مرتبكا :

— أى بيت ؟

فقالت وهى تناولنى بطاقة كانت فى يدها :

— بيت الافندى .

وما إن قرأت اسم صاحب البطاقة حتى نظرت إليها مشدوها ، ورحت أتحسس بيدى المقعد الذى أجلس عليه ، لأستقر وتستقر أنفاسى . وأحست هى أننى أريد أن أقول لها شيئاً قد فطنت إليه ، فقالت بصوت اختلطت أنفاسه بوسوسة الذهب الذى زانت به معصمها وقالت :

— أنا مراته .

وما إن نطقت بهذه الكلمة حتى فقدت البقية الباقية من أعصابى ، وكل الذى أدريه أننى أعطيتها كافة ماطلبت . ولما وهمت بأن تنصرف ، رحت أفسح لها الطريق كما يفسحه خادم لسيده ، إلى أن بلغت المركبة التى كانت تنتظرها ، فوقفت ثم نظرت إلى لحظة ، ابتسمت خلالها ابتسامة أضاءت الوجه ، وأضفت على الجبين كله نوراً باهراً . ثم مدت يدها وصافحتنى ، ولما أحست بارتعاش يدى بين أناملها الرقيقة سحبت يدها ، واستدارت منكسرة الجفن قائلة :

— ابقى خلينا نشوفك .

وانصرفت ، وعدت أنا إلى مكتبى فرحا بهذه الخدمة المتواضعة التى مكنتنى الظروف من تقديمها لزوجة فتوة الحوار ، وميت حدر والشيخة عيشه . وكان أن مضت أيام بعد هذا اليوم لم أر فيه أحداً حتى ولا سلامة ماسح الأحذية . . حتى هى لم أرها ثانية إلا لماما ، وإن كانت دائماً ما تكون عند دخولى الدار فى الشرفة أو النافذة المطلة على الحارة ، ولكنى أشهد الله أن عينى ماكانت لتتحول عن موضع قدمى ، وإن بدرت منى نظرة عارضة فإلى المقهى وترابيزة معينة . غير أنى أحياناً كنت أراها عندما أدخل الدار خلف الباب تبتاع شيئاً من بائع متجول ، أو على الدرج صاعدة أو هابطة ، فكانت هى التى تحيينى وتبتسم إلى ، ولما كانت ترى ارتباكى وبصرى الحيّ المنخفض ، تنصرف غائبة غارقة فى أحلى ابتساماتها ، إلى أن جاء يوم وكان أول يوم فى الشهر ، وذهبت

فيه إلى الدار مبكراً على غير العادة لأكتب رسالة إلى أمى أطمئنها على حالى ، وأبعث إليها بالثلاثة الجنيهات المعتادة، وبينما أنا أجتاز عتبة الدار وأفتح باب غرفتى ، رأيتها أمام مسكنها على الدرج وقد ارتدت (روبا) جميلا من الحرير المشجر ، غدا جسدها يتلألأ فيه كقطعة من الماس الثمين ، وقد ارتكزت بمرفقها العارى على درابزين السلم ، فمال جسمها الفارع فى انحناءة بسيطة زادت الجسد فتنة وجمالا ، وأما كن البروز فيه حدة ومضاء ، حتى غدت فى وقفتها كالسيف كمنت قوته فى انحنائته . وما إن رأتنى حتى قالت بصوت عذب سبقته ابتسامة رقيقة ، أومضت من بين شفتيها :

— تسمح ياسى محمد تتفضل تشرب عندنا قهوه وتكتب لى جواب.

وشعرت كأن الأرض تميد بى ، وفقدت يدى مكان المفتاح من الباب ، ولاحظت هى ذلك فأقبلت على فى خفة ظبى مرن ، وما إن دانتنى حتى قبضت براحتها على ذراعى التى راحت تنتفض فى يدها ، ثم راحت تصعد بى الدرج وأنا ذاهل مأخوذ ، حتى أننى لم أتبين حقيقة الخطر الذى أنا مقبل عليه إلا وهى تجلسنى على مقعد وثير فى غرفة بها سرير تفوح منه رائحة عطر جميل وتقول :

— جرى إيه ، انت خايف ؟

ونهنى صوتها إلى وجودى ، فوقفت وقلت لاهثاً :

— تسمحى ، أكتب لك الجواب بعدين لأننى أخشى . .

فقاطعتنى وهى تعيدنى إلى جلستى ثانية ، ولكن بجوارها على حافة السرير :

— ماتخفش أنا عامله ترتيبى .

وهنا أدركت شيئاً ، وأرسلت عينى على الرغم منى نظرة مرتعدة إلى وجهها المتورد وجسدها المتبلور ، فألفيت الروب قد انشق من الأمام عن فخذين كأنهما فى نورهما شعاع شمس تسرب من ثقب نافذة إلى مكان خال ، يعلوهما قميص من الحرير اللين بلون الورد الأبيض ، ما إن رأيت لمعانه يختلط ببريق البشرة الناعمة حتى اندلعت ثائرتى ، وراحت تقذف حممها فى جوارحى ، حتى التهبت ، ورحت أنظر إليها كطفل يتيم يتطلع إلى قطعة من الحلوى . وكأنها رأت ذلك فى عينى فراحت بعينيها تهدىء ثائرتى ، وتستنهض همتى ، وظلت بى حتى غدوت أنا الطفل أعبث بها عبث الطائر السكاسر بحمامة مهيضة الجناح .

وانقضت ساعات عدت على أثرها إلى غرفتى ، ورحت أنزع ثيابى متخاذلا ، وأنا أشدما أكون فرحاً بصديقتى الجديدة ، التى طمأنتنى على مصيرى ، وعلى تكرار لقائنا ، دون أن نعرض حياتنا للموت إن شعر بنا الأفندى . وتفقدت وأنا أنزع ثيابى القلم الذى كنت سأكتب به الرسالة إليها فلم أجده ، فأسرعت لاستحضاره خشية أن يراه أحد فيظن الظنون . ولشد ماكانت دهشتى عندما رأيت ، وأنا أقبل على مخدعها من بعد ، « الأفندى » بجوارها أمام السرير منطلق الوجه ، يعد فى يديه نقوداً كنت أعطيتها إليها ، وكنت سأبعث بها إلى أمى .

عواء الكلاب

. . . . وبعد تفكير طويل تناولت القلم وأخذت تكتب :

لو أنك استطعت أن تسأل القلم الذى كتبت لك به هذه الرسالة : كم من الوقت ظل مستسلماً لأناملى فى صمت ، دون أن يقوى سنه على الدنو من الصحيفة ليخط عليها حرفاً واحداً ، واستطاع هو أن يرد عليك : لأجابك ثلاث ساعات كاملة ، بدأت من الثالثة صباحاً حتى أقبلت أول قاطرة ترام تهز بدويها نوافذ شارع الخليج ؛ وتزف إلى اللائى كحل السهد جفونهن من سكانه بشرى انبثاق الصبح على نهار يأملن فيه تحقيق الأمانى .

وليس هذا تهيباً يا فؤاد ولا هو تصوراً ، فالجمل كانت تتسابق ، والعبارات تتلاحق ، والكلمات تكاد تقفز من بين شفتى ، وتنقر نفسها نقراً على الصحيفة التى ستحظى ، ولو لحظة ، بنعمة التمتع بأناملك ، أناملك التى ما لامست جسدى مرة إلا وأغرقته فى بحر من لذاذات النشوى الفياض ، وهيأت له خلاصة ما تشتهيه المرأة فى الوجود من لحظات تمر بها .

إذن فيما قضيت ذلك الوقت ، وقطعت تلك الساعات الثلاث ، . . . فى تخيلى جمال تلك الكلمة الحلوة التى أردت أن أبدأ ، ولأول مرة ، بها رسالتى إليك . والتى هى عزيزة عليك ، حبيبة إلى نفسك ، والتى هى (زوجى) . . . أوه زوجى ، ما أحلى هذه الكلمة ، وما أعذب رنينها فى أذنى ، بل وما أحوج شفتى إلى ترديدها دائماً . . .

وليس مرجع شغفى بها لسمو معناها ، أو نبل مرماها . فهى وإن كانت أسمى وأنبل ما فى قواميس اللغات من كلمات ، حتى أن الله ميزها واصطفاها فجعلها همزة الوصل بين الرجل والمرأة ، وحجر الزاوية فى بناء المجتمع ، ونقطة الارتكاز فى العالم ، إلا أن شغفى بها لم يكن مرجعه لذلك كله ، بقدر ما هو لجمال تلك الليلة التى ألححت علىّ فيها أن أدعوك بزوجى . وظللت بشفتى تسكرهما برضابك ، وتدغدغهما بثناياك ، حتى انجرحتا وفاهتا لك بها .

هل ما زلت تذكر تلك الليلة ؟ . . وهل تذكرها جيداً ، وتذكر ظروفها وحوادثها التى حدثت تباعاً ، وبسرعة غير منظورة أو مألوفة . . . أما أنا فما زلت أذكرها ، وأذكرها جيداً . أذكر وقتها ولحظتها كما لو كنت ما زلت أعيش فى وقتها ولحظتها . وهل تنسى المرأة اللحظة التى تمر بها مرة واحدة فى حياتها ؟

من قالت لك غير ذلك فهى كاذبة . . . شيئان لا تنساهما المرأة : القبلة الأولى . . والزوج الأول .

أما القبلة الأولى فلأنها أول شرارة تشعل أنوثتها ، وأما الزوج الأول فلأنه أول بحر وقى أنوثتها عوادى الاحتراق .

. . . إذن كيف أنسى ؟

هل أنسى أصيل ذلك اليوم الذى جاءتنا فيه شقيقتك إلهام ، واستأذنت أمى فى أن أذهب معها إلى حفلة عرس ابنة خالتها مديحة ، وربما مكثنا هناك الليلة كلها . وقد قبلت أمى بعد لأى ، وبعد أن تأكدت من أن أمك ستصحبنا إلى هناك ، وسوف

لا ترجع إلا بنا ، وما إن دلفنا إلى السلم ، ورحنا نهبط درجاته فى سرعة ، حتى أطلقت إلهام ضحكة حبيسة ، أردفتها بقولها وهى تضغط بيدها على ذراعى الممسكة بها :

— إيه رأيك فى المؤامرة دى ؟ لا فرح ولا يحزنون .

ولما أطلقت المفاجأة جبينى وأوقفتى ، أطلقت إلهام ضحكة أخرى ، وقالت وهى تجذبنى جذباً وتقودنى إلى سيارتك ذات المقعدين :

— يا شيخه سيبك بقى من الجمود ده . هو فيه أحسن من السهر والفرح والفرفشة !

وانطلقت بنا السيارة حتى بلغت بنا باب الخلق ، فوجدناك هناك فى انتظارنا على مدرج دار الكتب . وكنت ترتدى البذلة الكحلية والكرافتة الحمراء التى انتقيتها لك يوم أن ذهبنا معاً لأول مرة إلى شيكوريل .

... أوه ماذا أذكر . أأذكر لك حتى توافه الأمور . وأقول لك إننا ذهبنا بعد ذلك إلى السينما وإن إلهام استأذنت منا بحجة أنها على موعد مع سميرة وكيكى وأمها فى سينما مترو ، وربما عادت بهن إلينا قبل أن نخرج .

إن فى ذكر هذه التوافه ، ولا سيما إليك ، ثرثرة مملة . إذ كيف أقص عليك قصه أنت خالقها ، وأروى لك حادثة أنت مدبرها ، وغير ذلك فإنى أرى فى التغاضى عن هذه التوافه لذة كبيرة ، لأننا بذلك نضع يدينا ، وبسرعة ، على نافذة الحقيقة التى نطل من

ورائها على الدنيا العريضة ، والحادث السعيد الذى ربط حياتنا ، ودعم سعادتينا بدعائم الهناء الأبدى .

والذى أذكره الآن وتذكره أنت معى أننا بعد أن خرجنا من السينما ، وانطلقت بنا السيارة فى طريقها إلى منشية البكرى ، حيث مسكنك الخاص الذى اعتدت أن تقضى فيه أوقات فراغك ، وتستجم فى هدوئه من عناء أعمالك المرهقة فى الوزارة ! بعيداً عن ضوضاء البيت الكبير ، إنك قلت لى ونحن نجتاز مدخل الحديقة :

— انظرى حتى القمر يبتسم لمقدمك .

هممت أن أنظر إلى القمر ، ولكن شغلنى عنه ضوءه المنعكس على شعرك اللامع ، فوقفت أتطلع إليه ، ووقفت تتطلع إلى .

ثم عدنا فواصلنا السير إلى أن احتوانا المسكن ، وآوتنا الوحدة ، ورحنا فى صمت ننسج خيوط السعادة ، ونضفر شبكة الهناء ، دون أن نشوش على تفكيرنا بشىء ، حتى بلغ من حرصنا على مواصلة الصمت ، أننا ، ونحن على المائدة ، كنا نتناول العشاء فى سكون وتؤده ، حتى لا نحدث حركة تحول بيننا ولو لحظة فى وضع خيط من الخيوط فى الشبكة . اللهم إلا كلبى الصغير فهو الذى كان يداعبك فى تلك الليلة على غير عادته ، وينظر إليك نظرات مبهمة لم أتعودها أنا منه . وكلما تغاضيت أنت عنه وأهملته ، قفز مرة على صدرك ، وأخرى على كتفيك ، وثالثة يدنى رأسه الصغير من أذنيك ، كأنه يريد أن يسر إليك أشياء لا يود أن أسمعها . وكلما زجرته أنت وابتعد قليلا ، عاد ثانية ، إلى أن ركلته بقدمك ركلة قاسية ، راح

يتلوى على أثرها أمام غرفة مخدعك التى تمدد على بابها ، وقد وضع رأسه على الأرض وراح ينظر إلينا وكأنه يبكى .

ولما أردنا أن نجتاز باب مخدعك لترينى أثاثه الجديد الذى ابتعته حديثا ، هب فى وجهك وكأنه ينهرك أو ينهاك . بيد أنك عدت فركلته ركلة أخرى لا تقل قساوة عن الأولى ، أودت به بعيداً وهو يتأوه . وكأنه جندى مثخن بالجراح. ثم دلفت بى إلى الغرفة وأحكمت رتاج بابها الداخلى . ولما سألتك لماذا أغلقتها ؟ قلت ضاحكا وأنت تنفث دخان لفافتك — لنأمن شر الكلاب .

والغريب أننى أكتب لك عنه الآن وهو مقبع أمامى على المنضدة التى أكتب لك عليها ، ينظر إلى نفس النظرات التى يوجهها إليك .

ثم رحت ترينى أثاث غرفتك التى نظمتها على طراز جديد . وإنى أصارحك القول إننى لم أر فيها شيئا ، ولم أعرف لقطعة من أثاثها لونا . إذ قد انتابتنى فى تلك اللحظة التى أغلقت فيها الباب فكرة خبيثة تملكتنى واستولت علىّ ، حتى موهت شتى المرئيات فى عينى، إلا لونها الأسود الذى ظل فى نظرى قاتما ، ورحت أنظر إليك فى خوف ، أو بمعنى أصح ، وقفت حيالك مرتعدة لاهثة القلب من فرط الاضطراب ، وقد أدركت أنت ذلك ، فأسرعت إلىّ وطوقتنى بذراعيك ، ورحت تطمئنى وتهدىء من ثائرتى ، فى حين أنك كنت من ناحية أخرى تستنهض همتى وتستذل قواى.

وفجأة وأنا بين يديك ، شعرت بشىء غريب فتح عينى ، ولكن

على ذلك الشيء الأسود الذى أرتعد منه ، وجسم لى ، حتى كدت أرى بعينى مهد الجريمة ومخدع الإثم ملوثاً يقطر من دمى المسفوك. فانذعرت وأفلت من بين يديك محتمية بجدار الدولاب الفرعونى الكبير ، وظللت كذلك أرتعد وأنظر إليك فى خوف نظرة الشاة الضالة المغلوبة إلى ذئب الصحراء المفترس ، حتى كدت أسقط عند قدميك ، لولا أنك أدركت ذلك ، فأقبلت علىّ فى شهامة ونبل ، وأعلنت أمام الله الذى يرقبنا نبأ عقد خطبتنا ، قائلا وأنت تحتوى جسدى الخائر المنهوك بين ذراعيك القويتين : إنك اليوم زوجى أمام الله ، وغداً أمام الناس .

وهنا جحظت عيناى ، وراحتا تحدقان بك ، حتى غام بياضهما رويداً ، وانقفلتا على سبات لذيذ ، لم أفق منه إلا على عواء كلبى الصغير خارج الغرفة ، ونباحه المتقطع وهو يطرق علينا الباب طرقاً متواصلا ؛ حتى كاد يدمى مخالبه . . .

أوه مالى ولهذا كله ، فما كتبت لك من أجل هذه الذكريات العذبة ، وإنما كتبت لك رداً على رسالتك السابقة التى بعثت بها إلىّ من مصيفك فى الاسكندرية .

تقول إن سبب عدم إعلانك الخطبة وإتمام الزفاف بالسرعة التى أرجوها هو رغبتك فى أن تهيىء لنا مسكنا خاصاً بعيداً عن مسكن الأسرة ، لأنك تخشى أن أملك وشقيقاتك ينغصن على فى شىء . . . أما إلهام وسميره فعما قريب ستتزوجان . أما أمك ، أو بالمعنى الأصح . . . « حماتى » .

أوه . . . إننى أضحك . . . أتدرى لماذا أضحك ؟ . . لأننى أتخيل نفسى معها فى عيشة واحدة . . . وأتخيلك عندما تعود إلى الدار وتشكو لك منى فتنهرنى أمامها . وعندما تخلو بى تربت على كتفى قائلا :

— إننى إنما أنهرك أمامها فقط — فأرد عليك من قلبى قائله : وغير أمامها يا فؤاد . فما أحب إلى من أن تصفنى من أجلها ، ولو كان الخطأ فى جانبها . .

فمن هذه الناحية ثق أننى ، كما قلت لك دائماً ، ليس أحب إلى قلبى من أن أكون خادمة لمعارفك ، بله أمك وشقيقاتك .

وغير ذلك يافؤاد يخيل إلى أنك تناسيت السر فى إلحاحى عليك بسرعة إنهاء الزفاف . . لقد مضى على تلك الليلة شهران ، والحادث المنتظر بدأ يعلن قدومه . . إننى ليلة البارحة لم أنم لأننى شعرت به ، لأول مرة ، يثبت وجوده ، وكأنه يدغدغ أحشائى بآماله الحلوه التى لم تخلق أظافرها بعد .

أتدرى ماذا أريد أن أسميه ؟ . . عادل . . وهل تدرى لماذا اخترت له هذا الاسم ؟ لأنه من أسماء الله الحسنى . . الله الذى من على بك وقضى لى بتلك السعادة اللانهائية والفرحة غير المحدودة .

أرجو أن يكون — البلوفر — الذى أرسلته لك قد أعجبك . . كنت أمس عند صيدناوى أشترى لك بعض حاجات خاصة تلزمنا ، فأعجبت بلون جديد من الصوف ابتعت منه كمية . وها أنا أشتغل لك فى واحد آخر سهرت فيه ليلة البارحة حتى الرابعة صباحاً ،

وإلى أن نلتقى كوعدك ، صباح الأربعاء ، على رصيف محطة القاهرة فى القطار الذى يصلها السابعة والنصف مساء . . . أبثك أحر قبلات . . . زوجتك :

حسنية

* * *

ولما انتهت من كتابة هذه الرسالة أعادت تلاوتها مرة ومرة . ولما ارتاحت إليها طبعت عليها قبلة أودعتها كل ماتستطيع الزوجه أن تحمله لزوجها ثم لصقت عليها طابع البريد .

ولكى تستوثق من وصولها تسللت من الدار خلسة ، يصحبها كلبها ، وألقت بها فى صندوق البريد المجاور للدار . وعندما رجعت قابلها بائع الصحف ، فألقى إليها بجرائد الصباح التى تعود والدها أن يتصفحها وهو يشرب القهوة فى السرير عند ما يستيقظ ، فتناولتها منه ، ثم راحت تصعد الدرج فى خفة ورشاقة حتى بلغت السرير ، فاستلقت عليه تعبة من طول السهر .

وبعد حين ، وعلى غير قصد منها ، تناولت الصحيفة ، ودون أن تعى أخذت تقرأ هذا الخبر من صدر الاجتماعيات :

« سافر اليوم إلى فلسطين الأستاذ فؤاد بك الشافعى ، وعروسه عنايات هانم فهمى كريمة سعادة أبو العنين بك من سراة الأسكندرية ، لقضاء شهر العسل ، وكان فى توديعهما على رصيف المحطة الكثير من وجهاء الأسكندرية وأعيانها .

* * *

شيء واحد هو الذى كان يشغلها بعض الشيء عن الصحيفة التى استماتت عليها أناملها . . .

ذلك هو كلبها الصغير الذى تحولت نظراته الحيرى إلى دموع انسابت على فكيه .

مفاتيح الأقفال

قال محدثى وهو يدير بين أنامله كأسه الثانية، وينظر إليها ليأتى على مافيها مرة واحدة ليملأ غيرها وغيرها . فقد كان فى أواخر أيامه من المدمنين :

حدث ذلك كله من زمن بعيد، فبينما كنت أجتاز تلك المرحلة العذبة التى يتمتع فيها الإنسان بصدر الصبا ، وشرخ الشباب ، إذا بعاصفة قوية تهب على دارنا ، وكانت عاتية فعصفت بكل شىء فيها، وأصابت أول ما أصابت جسدى الذى كنت أظنه قوياً بأخبث الأمراض ، وطوحت بى إلى المصحة ، فمكثت بها خمسة وعشرين شهراً . ولما كتب لى الشفاء ، وغادرت دار الآلام ، وجدت أن تلك الشجرة الوارفة التى كانت تظللنا جميعاً قد اجتث القدر جذعها ، وأذرت الريح ببقاياها، وأن ذلك الوجه الصبيح ذا اللحية البيضاء الناصعة ، الذى كان نوره يضفى على البيت كله فيملؤه أمناً وهدوءا ودعة قد تلاشى ، وخيم مكانه دخان ثقيل الظل تكاثف فى أرجائه ، وجثم فى ساحته ؛ واستقبلتنى أم باكية الطرف ، محزونة القلب ، ملتاعة الفؤاد ، وصبى فى الثانية عشرة من عمره آذاه اليتم فى نفسه ، وأقبل علىّ وطوق عنق بذراعه ، وتطلع إلى عينى وكأنه يبحث فيهما عن آماله الضائعة ، ودنياه المفقودة ، ثم قال وهو يقبلنى قبلة أمانها الألم على شفتيه :

— لقد فقدت أبى فهل أجده فيك . . . ؟

وكانت آمال أبى فى هذا الصبى كبيرة ، فأقسمت بين نفسى

لأقوم منه مقام أبيه ، ولو أدى الأمر أن أرهق ساعدى لأنفق عليه . ونلت إجازة الهندسة بعد ذلك بثلاث سنوات . ولم أمكث طويلا حتى وجدت عملا فى مصلحة حكومية بإثنى عشر جنيهاً فى الشهر ، واستطعت بذلك المبلغ البسيط أن أنفق على نفسى والبيت وتعليم الصبى ، كما استطعت أيضاً بهذا المبلغ أن أفتح فى سماء البيت كوة صغيرة ، نفذ إلينا منها بعض الضوء فأضاء نفوسنا ، وأثلج صدورنا بعض الشىء . ولكن أمى أبت إلا أن توسع تلك الكوة لتملأ البيت نوراً ونفوسنا إشراقاً ، وتأتى على مابقى من معالم الهم فى قلب ابنها الحبيب ، فراحت تعد العدة لزواجى دون أن أشعر . ولما بلغتنى نواياها حاولت طاقتى أن أثنيها عن عزمها ، لأنى لم أكن أحسن الظن بالزواج المبكر ، ولكنها أصرت ، وكاد الخلاف يحتدم بيننا ، وظللنا على ذلك أياماً كانت أمى فى خلالها قد انتهت من كل شىء ، حتى من تحديد موعد الزفاف . ولم تمض ستة أشهر كاملة على تثبيتى فى عملى حتى كانت فى دارى زوجة .

وتبين لى فيما بعد أن أمى كانت على حق ، وأن الخطأ كله كان فى جانبى لو أننى لم أستسلم لرغبتها ، فما كنت أعتقد أن السعادة التى نبحث عنها ونتشدها لنا توجد كامنة فى عينى المرأة التى لا يحجبها عنا إلا وطف الأهداب . وأن السلسبيل العذب الذى ينشط الفكر ويجدد الحياة ويبعث فيها القوى الكامنة ، هو الذى نجده متدفقاً من بين خليج ثدييها ، وأن المرأة الجميلة التى تنشر شعرها الذهبى فوق ثوبها السنجابى ، وتخطر مع الأصيل تلفها أسلاك الأرجوانيه

هى أثمن ألف مرة من تلال الذهب التى يقتتل عليها العالم، وتخجل من طلعتها الشمس. وما كنت أعتقد قبل الزواج أن النساء هن رياحين الدنيا، وهن عطر الحياة؛ وأن المرأة إذا دخلت بيتاً وضحكت فيه أطربت الملائكة، وأرقصت سكانه.

وكان أن ضحكت فى بيتنا امرأة.

وكانت عنان ولوعة بالضحك، شغوفة به، ما تنفك تضحك دائماً، وكأنها لحظت على ضحكتها إذا تركتها على سجيتها، ومزجتها بغنجها ودلالها، أنها تسبى العقول، وتنفث السحر فى النفوس، فغدت تضحك دائماً، تضحك لكل شىء، ومن كل شىء، حتى كلبها الصغير كانت لا تداعبه إلا بالضحك. وقد حاولت مراراً أن أشبه ضحكها فلم أعثر له على شبيه. كانت الضحكة نفسها أنثى توفرت فيها عناصر الخصب، إذا أصغيت إليها، وهى تقبل على أذنيك تتهادى بشتى أنغامها وصنوف نبراتها، حركت فى نفسك كوامن الحب، وبعثت الحياة بسامة حتى فيمن هم فى طريقهم إلى القبور. وجبينها الوضاء كان أول ما يتبادر إلى ذهنك عندما تنظر إليه، وهو فى لحظة من لحظات إشراقه، أنك أمام تمثال من المرمر تصب إحدى النثريات ضوءها عليه فتنير لك كل شىء فيه، وتكشف لك عن بواطن جماله، وتعطيك صورة واضحة من ذلك الصدر العريض الذى ينبئك مجرد النظر إليه أنه إنما أقام نفسه كذلك فى عرضه واتساق نهاياته وقوة عضلاته، لأنه كلف أن يحمل أجمل ثديين عرفا على صدر امرأة.

وكم من ليال قضيتها مع هذا التمثال فى محرابه ، لاشغل لنا إلا أن نصنع من أنفاسنا ثقابا نشعل به أجسامنا، دون أن نحس بكياننا أو نرحم قوانا ، حتى يهب علينا نسيم السحر الندى مبشراً بقدوم الفجر، فنهرع إلى النافذة مطلين على الأزل من خلال أسجافها ، متمنين على الزمن أن يوقف دورانه لكى تخلد لياليا .

وكان من فضل الله على ان أحبتنى عنان حباً لا أعرف أن امرأة أحبته رجلا ، لذلك أحاطتنى بذراعيها وغمرتنى بحنانها ، وسكبت حبها فى قلبى وهى تضمنى إلى صدرها . ثم عرفت بعد ذلك كل ما أحب وما أبغض . عرفت أننى أحب أخى فأحبته . وعرفت أننى أهتم بشئونه وتهيىء أسباب التعليم له ، فأقامت من نفسها له خادما ومربياً ، وكثيراً ما كانت تقضى معه الشطر الأخير من النهار والأول من الليل تذاكر له أو معه ، حتى رمضت عيناها ذات يوم ولازمت الفراش أياماً ، دون أن تأسو على ذلك أو تفكر فيه . وعرفت أن مصابى فى أمى كان كبيراً ، فقد لحظت على ذلك ، وبلغها خبر تلك الدموع التى سحتها عيناى على قبرها ، فأوقفت نفسها على تخفيف هذا الخطب وتلاشيه من نفسى ، والغريب أنها نجحت فى ذلك نجاحاً باهراً فى مدى أيام قلائل ، فقد استطاعت أن تجعل مخدعنا تعطره ضحكاتنا قبل توزيع صدقات الأربعين بأيام وعرفت . أننى أشتهى تناول الطعام فى حضرتها ، فحرمته على نفسها فى غير وجودى ، حتى ولو انقضى النهار كله ، ولم أرجع إلى البيت . وما أذكر أننى وصلت البيت مرة إلا وجدتها خلف بابه

تنتظرنى لتفاجأنى بضحكاتها وتطوق عنق بذراعها ، وتطبع على شفتى قبل اللقاء ، ثم تقودنى إلى المائدة التى تكون قد أعدتها لاثنين: أنا وهى ، أو على حد تعبيرها : كمال ، وعنان .

على هذا قضينا أياماً يحسبها التاريخ بالسنوات الخمس ، أما القلب فبلحظات البشرى أو اللقاء ، ثم بدأنا بعد ذلك نجتاز مرحلة جديدة كانت هى ختام تلك الحياة ، ونهاية ذلك التاريخ . بدأت أحس بعد مرور تلك السنوات أن هناك شيئاً يشبه شآبيب الهم وطوالع الأسى يلوح فى حياتنا السعيدة . وبدأت هى تحس بشىء يشبه الفراغ والنقص الذى لا يلائم وجودها وتريد تكملته . وكان الشىء الذى يمضنى هو رغبتى الصادقة فى معرفة حقيقية ذلك الشىء الذى أراه دون أن أجده . ولاحظت على عنان أنها دائمة التفكير كثيرة التبرم ، تعلو وجهها كآبة ثقيلة الظل . وبدأت ألاحظ عليها أنها لا تهتم بنفسها ولا بشئون دارها ، حتى شئونى الخاصة بدأت تلحظها بعين مجردة من العناية والاهتمام . فمثلا الباب ، كثيراً ما كنت أجده موصداً عند قدومى ، والمائدة لا تعد إلا إذا طلبتها أو سألت عنها ، والضحكات الرنانة التى كانت تعطر أرجاء البيت بدأت لا تتكون إلا بمقدار ، والحديث العذب الذى كان يتبادل بيننا ويتدفق علينا من حيث لاندرى بدأ يتلاشى . وبدأنا نمكث الساعات الطوال دون أن يسأل أحدنا الآخر عوداً من ثقاب ، أو فنجاناً من القهوة . ومكثنا على ذلك أياماً طوالا كنت أرى فيها عنان من كثرة تفكيرها وإجهادها فى دفع الأذى عنها ، ذابلة

الرواء مقرورة الشفتين ، جافة العود . أما أنا فمن كثرة ما فاجأنى من هم كنت كجسد الشمع عندما يوضع فى ماء دافىء ، يذوب قلبه وتتآكل نياطه ، وهو محتفظ بهيكله . وعلى هذه الصورة قضينا أياماً كانت أثقل من أيام الثكل ، وأطول من ليالى التفجع ، مع أن ظاهرها كان طبيعياً لاغبار عليه . وتصادف أن رجعت مرة إلى الدار مع الليل ، وكانت الساعة الثامنة ، فلم أجد عنان فى الشرفة تستقبلنى ، ولا هى فى البهو تنتظرنى كعادتها . ولفت نظرى عندما دخلت أن العشاء أعد على المائدة لشخص واحد ، فسألت الخادم عن سيدتها فأخبرتنى أنها فى مخدعها نائمة لم تغادره من قبل الغروب ، فأطرقت إلى الأرض ، ثم يممت وجهى شطر المائدة ، وقد انطلقت مع أنفاسى زفرة حارة ، أعتقد أنها لو التقت عند خروجها بجسم صلب لصهرته . وبينا أنا على المائدة إذا بى أرى عنان تظهر على باب مخدعها تحمل على صدرها (سوسو) ، وسوسو هذا ابن إحدى سكان منزلنا ، وصديقة عنان . فنظرت إليها وأنا أخفى لوعتى بستار من الابتسام وقلت :

— لماذا سوسو هنا الآن ، وأظن أمه قد نامت . .

فقالت : لأنه أبى إلا أن يبيت معى .

فقلت : إنى أرى أمه لاتعنى به أو تداعبه مثلك . .

فقالت : لأنى أكاد أحبه أكثر منها .

فقلت وأنا أنظر إليها وإلى الطفل :

— إننى أراك ولوعة بمداعبة الأطفال. فما السر فى ذلك؟ أتحبينهم ياعنان ؟.

فقالت بصوت أسيف وهى تداعب شعرى الحزين بأناملها الرقيقة:

— ألا تعلم ياكمال أن الأم بغير طفل كالقفل المعطل لفقد مفتاحه.

وبرقت هذه الكلمات فى ذهنى كما تبرق السماء فى جوف الليل، فازدردت آخر لقمة كانت فى فمى، وقلت وأنا أذهب لأغسل يدى:

— ولذلك كثيراً ماتعبث الشياطين بما فى جوف الصندوق الذى يفقد مفتاحه، أليس كذلك ياعنان ؟

ولكن عنان لم تجب، ومن ثم عرفت كل شىء، واستطعت أن أرى لون تلك الغمامة التى تكاثفت فى سماء بيتنا. واختمرت عندى فى تلك الليلة فكرة عرض نفسى على طبيب من الذين أثق فى رأيهم. وكان أن فحصنى ذلك الطبيب فحصاً دقيقاً ثم أفهمنى بعد أن أجهد نفسه معى، أنه من الخطل فى الرأى إلقاء التبعة على غيرى. فاستطعت من ذلك أن أفهم كل شىء. ومن ثم ودعته وانصرفت إلى دارى، وفيها التقيت بعنان وصارحتها بالأمر، وأفهمتها ضرورة فراقنا، إذ من الظلم أن أحملها وزر قصورى، وهممت أن أنطق فعلا بتلك الكلمة الثقيلة على كل زوج، ولكن عنان أسرعت باكية، وكمت ثغرى بيدها، ثم جلست على فخذى، وطوقت عنقى بذراعيها. ثم قالت والدموع تنفرط لؤلؤية على صفحة خدها الأسيل:

— إننى لاأنكر أننى فكرت فعلا فى الأولاد، وأن هذا التفكير سبب لى بعض الحزن الذى غير مجرى حياتنا بعض الشىء. ولكنى

مافكرت مطلقاً أن أقضى على حياتى ومستقبلى ، فإن كنت تريد لى الموت فهأنذى بين يديك ، وهاهو فمك دعه يلفظ كلمة الطلاق .

ورفعت يدها من على فمى ثم ارتمت على صدرى باكية ، وغاصت بين أحضانى خائفة وجلة تبكى وترتعش . فحملتها على صدرى المكدود ، وذهبت بها إلى مخدعها ووسدتها الفراش ، وظللت بها أضمد جراح آلامها ، وأسكب فى أذنيها ما أملاه على قلبى المجروح من عبارات الحب الصادق ، حتى هدأت ثائرتها ونامت بين يدى .

وكان أن تغيرت حياتنا بعد هذا الحادث بأيام تغيراً ملموساً فيه بعض الهدوء والأمن والاطمئنان ، وإن كنا مازلنا نردد فى بعض الأحايين حديث الأقفال ومفاتيحها المفقودة ، إلا أننا لانحزن لفقدها أو نفكر فى البحث عنها . إلى أن دخلت على عنان ذات يوم مع الظهر وكنت فى مخدعى مستلقياً على الفراش ، أتفرس فى رسم لطفل صغير كانت عنان قد انتزعت صورته من إحدى المجلات ، وجلست بجانبى كالطائر الغرد عند ما يهدأ فى عشه ، ثم قالت بعد حديث قصير عن الصورة :

— أعطنى جنيهاً .

فنظرت إليها مستغرباً ، وأنا أعبث بشعرها اللامع الذى كان يحلولى أن أعبث به دائماً ، وقلت : لماذا . . .

فصمتت قليلا ثم قالت :

— لقد دلتنى أم سوسو على رجل عطار يمتهن فى السر صناعة

طب الأمراض التى تحول بين الخل .

ثم صمتت وقالت: وقد برع فى ذلك براعة شهدت بها كل نساء المدينة وأخذت تعدد لى بعض الرجال الذين طبب جراحاتهم ذلك العطار . ولما فرغت من حديثها ، قلت محزونا ، ولكن مبتسما :

— وهل يصلح العطار ، ما أفسد الدهر يا عنان ؟

فأشاحت بدموعها ، وزوت ما بين حاجبيها وقالت :

— ولماذا نظلم العطار ونحسن لم نحن الاختيار .

فلم أرغب فى جرح كبريائها أو إيلام شعورها ، لأنى عرفت بمجرد أن فاتحتنى فى ذلك الأمر كيف تجرح الكبرياء ويؤذى الشعور . فنقدتها الجنيه مظهراً ابتهاجى بذلك الطبيب الجديد .

وحدث فى اليوم الثانى أن دخلت الحمام مع الصباح كعادتى ، فوجدت إنائين ملىء أحدهما بالماء الدافىء ، ورأيت على سطحه طبقة كثيفة من سائل أخضر لزج . ووجدت الإناء الآخر قد طغت على سطحه أيضاً قطع صغيرة شبيهة بفضلات الخشب المتكسر أو بقايا قطع الإسفنج . فسألت عنان عن هذه العوارى . فقالت ضاحكة : إنها بعض وصفات الشيخ حسن . فنظرت إلى الإنائين ثم إليها ، وقلت : ولكن هذه أوراق (رجلة) مخروطة ولا يمكن أن ألوث بها جسدى . فقالت وهى تشير إلى الإناء الثانى : وهذا مطهر يزيل آثارها من على الجسد . . فقلت : (لا) ، ونطقت بهذه الكلمة فى إصرار وتعنت ، ولكن عنان نهرتنى فى قسوة وعدم مبالاة . كنت أظن الأمر سيكون عكس ذلك . فقلت فى

الحال مصدقا ، وقد تذكرت أمر رجولتى المفقودة : أجل لك أن تفعلى ماتشائين .

وصبت على جسدى ذلك السائل اللزج الكريه ، وأخذت تدلك به جسمى المحموم ، وأنا لها مستسلم ، ولأمرها طائع . ومكثت أكرر هذه العملية ستة أسابيع كاملة . لأن تعاليم الشيخ حسن ، له الله ، أبت إلا تعذيبى اثنين وأربعين يوما ، تبدأ بصباح جمعة ، وتنتهى عند ما يؤذن للناس بصلاة الجمعة السادسة . ومرت بعد ذلك ثلاثة أسابيع كاملة ، كنت أتناول فيها مع الصباح والمساء كل يوم شيئاً (مطحونا) أسود اللون كريه الطعم . وإن أنس فلا أنسى تلك اللحظات التى كانت عنان تجرعنى فيها ذلك الدواء المرير بمقدار ملعقة صغيرة ، وهى أمامى تنهرنى كأننى طفل صغير تجرعه أمه شربة والعصا فى يدها . ثم مرت بعد ذلك أيام أيضا ولكنى استجممت فيها من ذلك التعذيب ، وعاد فيها إلى عنان هدوءها ورضاها ، وغدت كعهدى بها وارفة الظل ، مشرقة الوجه ، متهللة الجبين ، بسامة المحيا . وعادت إلينا سعادتنا تركض بعد فك إسارها وأشرقت سماء بيتنا ، وحدد من جديد موعد افتتاح الشرفة عند الواحدة والنصف من كل يوم ، وانتظارى على الباب ، وتقبيلى عند اللقاء ، وتهيىء المائدة فى موعدها لاثنين ، وكثر اختلافنا فى كل يوم إلى ملاعب التمثيل ودور الصور المتحركة . وكان جمالها وفتنتها وفرحها بنفسها وأملى فى توفير أسباب السعادة لها ، كل ذلك كان يحتم على إطاعة أمرها دون النظر إلى أى اعتبار آخر . وكان آخر المطاف لذلك كله أن تحققت نبوءة الشيخ حسن وأثمر علاجه .

وجاءتني عنان في يوم صافي الأديم وزفت إلى البشرى فلم أصدق ، وأسقط في يدي . ولكن عنان أفهمتني أنها الحقيقة ، ودللت على ذلك بأشياء ملموسة أقنعتني ففرحت . كان فرحي بنفسي وفرحي برجوع رجولتي المفقودة إلي ، وانتشالي من وهدة الذل الذي تلاشى فيه وجودي أمام عنان ، والذي هو بمثابة الجرح الذي لا يندمل في قلب الرجل ، وخلوصي من دواء الشيخ حسن . كان فرحي بذلك كله لا يقدر ولا يحد ، ولا أحسب أنه كتب في الدنيا لرجل . وأراد القدر أن يمعن في سعادتي فجاءتني في صباح اليوم الثاني وأنا في مكتبي برقية من القاهرة تنبئني باجتياز أخي امتحان النقل للسنة الثانية من كليه الحقوق ، فركضت إلى البيت مسرعا لأبشره ولأقدم لعنان باقة من السرور في إطار نبأ هذه البرقية التي أعلم مدى فرحها بها . وأقبلت على الدار وفتحت بابها بالمفتاح الذي أحمله ، وأستقبل أذني عند دخولي نغم ضحكات عنان منبعثاً عذباً حنوناً من مخدعها الذي أقبلت عليه في لهف ، لأهيء لجوه أسباب تواصل الضحك .. ولشد ما كانت دهشتي عند ما وجدتها تضحك لأخي الذي احتوى جسدها العاري بين أحضانه .

ومد صاحبي يده ليأتي على ما بقي في كأسه الخامسة ؛ ولكنه بدل أن يرفعه إلى شفتيه قربها من عينيه وأدام فيها النظر . وإذا بي أرى جبهته تتقلص وعيناه تتلصص في قلب الكأس ، وأنامله تتصلب عليه . وإذا بي أراه يلقي بها مرة واحدة على الأرض ، ومن ثم أخذ ينظر في هدوء إلى أجزائها المتناثرة . . .

لقد كانت أشباح تلك الوجوه الثلاثة تطارده حتى في الكأس .

لفائف تحترق

قال وهو يتأمل دخان التبغ المنعقد فى سماء الحانة التى قادنى إليها ، وقد تكاثف فى أرجائها حتى غرق فيه المصباح الزجاجى الخافت المعلق فى الزاوية ، فانبعث نوره الأصفر خابياً على وجوه تلك الحفنة من الحوذية والحمالين الذين جلسوا يتمايلون على الطاولة الرخامية تحت المصباح ، وهم يلعبون « البصرة » على زجاجات النبيذ الرخيص الذى يشرب هو منها ، والذى توزعه عليهم « جمالات » راقصة بار الأميرة بثوبها التلى الموشى بثريات الترتر الأصفر البراق ، وحبات « خرج النجف » اللامعة التى انتثرت بكثرة على صفحتى الثوب فلألأت تموجاته ، وجوربها البرتقالى الرخيص الذى سقط من على ساقيها الزرقاوين الدقيقتين ، وتدلى على خلخالها الفضى فحجبه مع تلك الأزرار الأربعة التى صفت على جانبى حذائها الأسود الباهت . قال وهو ينظر إلى ذلك كله :

ألست ترى معى أن البؤس هو واضع أصول الاشتراكية ، وأنه هو الذى يجمع بين هذا الصنف من الناس فى صعيد واحد ؟

وقبل أن أجيبه بشىء نقر بيده نقراً هيناً على الطاولة الخشبية المتآكلة التى بيننا ، وطلب زجاجة أخرى من النبيذ ، فأقبلت بها جمالات ، وقد سبقتها رائحة كريهة انبعثت من ثغرها الأجوف الشبيه بفجوة ضيقة فى قبر مهجور . وأومأت لنا بوجه شاحب ارتسمت عليه صورة الموت الزاحف تظللها سحابة سوداء تمثل

رمز الشقاء الدنيوى . وكأنها أرادت أن تخفى معالم هذه الصورة الخالدة فدهنت وجهها بدهانات لزجة ، بيد أن العرق النابع من الجبين تصبب على الخدين فأحدث بهما شبه قنوات وأخاديد كشفت عن دقة الصورة ، وزادت الوجه دمامة وقبحا .

ووضعت الزجاجة بيننا ، ثم انصرفت توزع ضحكاتها المبحوحة على السكارى ، فشيعها صاحبى بنظرة حزينة علقت بأذيالها ، وبكأس من النبيذ الرخيص أفرغها فى جوفه ، ثم بدأ يتحدث وكأنه وجد فى الحديث تسلية وترويحاً عن نفسه الملتاعة . . قال :

كنت إذ ذاك لاأزال حديث العهد بالحياة العملية التى استقبلتها وأنا طرىء الساعد ، لين المنكب ، لا أقوى على حمل عبء الحياة الثقيل الذى قدر لى أن أحمله وحدى ، فقد نلت إجازة الطب بعد أن فقدت أبوىّ للذين كنت وحيدهما . وبفقدهما حرمت شيئين هما أعز الأشياء على كل نفس ، حرمت الزميل الصادق الذى يدلنى على مسالك الحياة كلما ضل رائدى فى مفاوزها ، وارتطمت رأسى بصخورها اليابسة ، وحرمت المال الذى أبتاع به الدليل الصادق والحارس القوى ، وهؤلاء فى الدنيا كالمطايا لا تعينك على قطع الطريق إلا إذا ملأت لها المخلاة . وكنت من صغرى أبغض الوظيفه لأنى تمثلتها فى والدى رحمه الله ، الذى كان موظفاً سجيناً حراسه تلك الجنيهات التى كان يقبضها كل شهر ، وشعاره قتل الحرية الفردية فى الإنسان ، وتلوين أخلاقه باللون الذى يشتهيه الرؤساء . لذلك

كرهتها وعافتها نفسى ، ورفضتها بكل إصرار عند ما طلبت الحكومة تعيين أوائل الناجحين الذين كنت منهم .

وذهبت إلى الاسكندرية مسقط رأسى ، وافتتحت عيادتى هناك ، وكرست لها وقتى . وبذلت فيها مجهوداً أثابنى الله عليه ، فعرف اسمى كطبيب ناجح ، وكثرت زبائنى ، وكثر معها دخلى الذى كنت لا أطمع فى أكثر من نصفه ، وألهتنى شؤون المهنة عن كل ما هو دونها ، حتى شبابى الذى كان يتشوق إلى نسيم الحياة وعطرها الشذى أغفلته ، ولم أعمل له حساباً ، وأصبحت أمكث الأيام لا أبرح العيادة ، ولا أرى فى الطريق إلا ذاهباً لغوث مريض ، أو قافلا من عيادة مرضاى الذين اتصلت حياتهم بحياتى ، وراحتهم براحتى ، حتى بلغ من حرصى أنه لما تحرجت الحالة السياسية ، واستهدفت الإسكندرية للغارات المتوالية التى بثت الرعب فى نفوس الأهلين ، وجعلتهم يهيمون على وجوههم هرباً من الموت الداهم ، وينشدون الحياة ولو فى أحضان الفاقة والجوع ، لم أفكر فى الهجرة مع من هاجر ، لأنها ستفصلنى الليل بطوله عن مرضاى الذين هم فى حاجة إلىّ ، ولذلك لم أفكر فيها أبداً مهما تعاظم الخطب وروعت نتائجه .

وظلت كذلك إلى أن حدثت تلك الغارة الفاجعة ، غارة ٧ يونيو ١٩٤١ ، التى ذهبت ضحيتها تلك النفوس البريئة تشكو إلى ربها ظلم الإنسان ، والتى لم أنج منها إلا بفضل بقية من عمر كانت

لاتزال باقية ، عندئذ فكرت جدياً فى الهجرة ، ولم ألبث طويلا لأن الفكرة كانت قداختمرت ، فهاجرت إلى دمنهور ، واستأجرت مسكناً متواضعاً أقضى فيه الليل الذى كان يتمثل لنا فى الأسكندرية بومة تنعق على رءوسنا ، ونظمت حياتى على هذا الوضع ، أركب قطار المساء من الأسكندرية إلى دمنهور ، وعكس ذلك فى الصباح ، بحيث أن مواعيد سفرى لم تختلف يوماً واحداً من تلك الأيام التى ما برحت ذكراها حية فى خاطرى ، لم يشيعها الزمن بعد إلى مقابر النسيان .

وحدث ذات يوم أن استيقظت مبكراً قبل موعد القطار بساعات ، وسئمت نفسى الوحدة والانتظار فى ذلك المسكن الضيق الذى لم أجد سواه فى دمنهور ، فانصرفت إلى المحطة ، فإذا بها خالية مقفرة من المسافرين ، فتراءى لى أن أذهب إلى البوفيه لأشرب فنجاناً من القهوة أحرق عليه لفافة الصباح ، وأطالع أخبار الحرب.

ولفت نظرى وأنا أتهيأ للجلوس سيدة تجلس وحدها فى زاوية منعزلة من البوفيه ، وقد دفنت وجهها فى كتاب تتأمله . لم يحدث مرآها فى نفسى شيئاً جديداً ، لأننى تعودت أن أراها دائماً . كانت تركب معى قطار الصباح إلى الاسكندرية ، ونعود معاً فى المساء فى قطار واحد ، وكنت أراها دائماً كما رأيتها فى ثوبها الأسود الذى لا يتبدل ، و « طرحتها » القاتمة التى تدلت أطرافها من الخلف على حذائها الأسود اللامع ، والتى لفتها لفة محكمة حول

وجهها الأبيض فزادته بياضاً ، كما ضاعف بياضه من قتامة لونها وسواد شعرها الفاحم ، الذى أبرزت منه خصلتين كبيرتين تدلتا على صفحتى الوجه فحولتا إشعاعه إلى إشراق ونور . وكأن هذا الزى الأسود الذى اختارته لنفسها ، أو أرغمها عليه القدر إرغاما ، أظهر خفايا من حيث لا تعمد ولا قصد فساقاها لا يلفتك إليهما قالبهما الفنى الرائع ، بقدر ما يبهرك الجورب الأسود وقد تراءى لك وكأنه ملتف على أمواج من نور ، بيد أن رقة الجورب ونعومة البشرة امتزجتا فانبعثت أضواء الساق تشاغل عينيك من خلف نسيج الجورب الأسود الخفيف .

وكان جمالها فى مجموعه يمتاز على غيره بقلة غموضه ووضوح معالمه ، فأنت ترى قدّها ، فتستطيع أن تتبين معالمه من خلف الثياب ، ويستطيع كل فضولى بمجرد النظر إليه أن يبين لك أسباب وجوده ، وماهية وظيفته فى الجسم ، حتى لتحس بالثمر الحلو قد طاب جناه من أعلى قمم البروز فيه ، أو حلا قطفه من منعطفات التثنى وحنايا التموجات . وكان ذلك يتمثل بوضوح أكثر فى معالم وجهها وقسماته التى تجذب نظراتك إليها جذباً ، ثم تنقل إليك على أسلاك تلك النظرات الخاطفة معانى تلك القسمات واضحة جلية . فبينا الثغر تستهويك مراشفه ، وتحس وأنت تتطلع إليه بعذوبة رضابه تسرى فى نفسك فتهدهدها ، ترى الخدين وقد أضاء لهيبهما ، وتوردت بشرتهما من لفحات النار المتأججة خلفهما ، فتشفق على

قلبك الذى يتشوق إلى اللعب بالنار . أما جبينها فلم أر مثله جبيناً حذق فن العبث بالعيون . كان بهاء صفائه يستهويك فتديم النظر إليه ، وباهر ضيائه المنبثق من هلال الجبين يرمى عينيك بحبيبات صغيرة ، كأنها خلاصة النور الإلهى الذى خلقت منه الشمس ، فتغض الطرف من لألاء النور ، وترجع به وأنت حزين ... إلا أنها كانت تبدو فى جلستها ، كما كانت تبدو دائماً حزينة مكتئبة ، سادرة القلب حائرة الفؤاد ، مشوشة الفكر تفكر فى أشياء ثقيلة على نفسها ، تحس أنت بثقلها من كثرة تأملاتها . وتراها من طول هذه التأملات وكأنها قد استكانت للحزن فلفها بغشاء رقيق ، تستطيع أن تتبين صورتها الحزينة من خلف نقابها ، فتعجب لهذا الجمال الذى خلق للصفاء كيف امتدت له يد العبوسة ، ولهذا المصباح الذى يضىء على مرمى النظر كيف أطفأته يد القدر .

وكان من مسببات لفت نظرى إليها وتفكيرى فيها هدوؤها ووحدتها ، فهى تألف الهدوء حتى فى خطوتها ، وتحب الاتزان حتى فى لفتاتها وإيماءاتها . فلم أرها قط تحدث إنساناً أو يحدثها إنسان ، كأنها مخلوق غريب عن البشر تجهل لغته ولا تحب معرفتها . لذلك كنت لا أسمع صوتها إلا نادراً عندما تبتاع صحيفة أو تشترى مجلة أو تسأل عن البوروجريه الذى كانت تطالعه كل يوم . عندئذ كنت أسمع صوتها ينبعث إلى أذنى كوسوسة الحلى أو أهازيج الطير وهى ترجع ترانيم الصباح فى أوكارها . وكان يحلو لها أحياناً أن

تبتاع بعض صنوف الفاكهة من الأسكندرية، كما كان يحلو لها أن تشترى بعض أنواع اللحم من دمنهور، فكنت أسر بذلك سروراً لا يقدر، لأنها ستسمعنى صوتها وهى تنادى الحمال . . . ترى هل هى وحيدة . . . ترى هل هى محزونة . . . أم ترى قد لحقها ظلم الإنسان المتمدين فهوى ببيتها ومات أهلوها فى غارة غاشمة، وهذا سر وحدتها وكآبتها . . . أم ترى هل تقسو الحياة حتى لا تفرق بين الرجل والمرأة ؟ أم تراها تعصب عينيها وهى تبذر بذور الشقاء فى الناس حتى لا يستهويها الجمال فتشفق عليه وتسقطه من حسابها ؟

مرت بمخيلتى كل هذه الصور وهى قبالتى أبعث إليها الطرف متلصصاً من خلال الصحيفة التى فى يدى، حتى جاء القطار فطوت كتابها، وألقت نظرة عجلى على ساعتها الذهبية الراقدة بين فكى سوار من الماس الثمين استمد ضوءه من بهاء المعصم العاجى الذى التف عليه. ثم انصرفت فتبعتها عيناى وشيعها قلب أحسست لأول مرة أن له آمالا.

ودفعتنى هذه الآمال إلى التفرس فيها إن هى أقبلت، أو التفكير فيها إن هى أدبرت، حتى أصبح مرآها من لزوميات عينى، والتفكير فيها من ضروريات عقلى، حتى أنها كانت عندما تقبل وتهدهد طلعتها عينى الحائرة، أفكر فى محادثتها لعل فى ذلك مايريح القلب، الذى كان لاينى يسر إلى نجيبه كلما زجرته عنها، وحذرته من التمادى فى غيه، فكنت أجمع لذلك شجاعتى لتعيننى على نطق

الكلمة الأولى ، وأقبل عليها حتى أحاذيها ، وإذا بعينيها تتحرك أهدابهما الساجية ، وتنفرجان عن بسمة نور فيها صفاء القمر عندما يطل على الكون من وراء غمامة قاتمة . وإذا بشفتى تنسى مالقنتها من ألفاظ ، وشجاعتى تذوب وتتساقط مع العرق الذى يطفو من كل جارحة فى ، وكيانى يهتز اهتزازاً فلا يسعنى إلا أن أتنحى بعيداً عنها ، متعثرا فى خطواتى . وإذا بقلبى يألم لذلك أشد الألم ، ويحزن عليه أشد الحزن ، وإذا به يتشكك فى رجولتى ، فيحز ذلك فى نفسى حزا حتى ليكاد يدميها .

ترى هل هذا هو الحب ؟ ولكن ألا يتخذ غير العيون قواعد يلقى منها شباكه ؟

وظللت كذلك حتى أتاحت لى الظروف ذات مرة فرصة الجلوس قريباً منها فى عربة البولمان ، وكانت مستغرقة فى كتاب بالفرنسية تقرأه بعناية ، حتى أنها لم تفطن لوجودى قبالتها . ولاحظت أنها متأثرة جداً بما تقرأه تأثيراً غير ملامحها بعض الشىء ، واستحوذ على عواطفها حتى أنها نسيت الوجود بالكتاب الذى فى يدها . وألهبت حواسى الغيرة من هذا الكتيب ذى الغلاف الوردى اللامع الذى نام مستسلماً بين أناملها ، وأعطاها قلبه فأعطته عينيها . فاختلست نظرة إلى عنوانه ، فعرفت أنه « سافو » لألفونس دودية ؛ وكنت قد قرأت هذه القصة قبل ذلك . وعلق موضوعها بذهنى وقتاً طويلا ، فشجعنى ذلك والتأثر البادى عليها حتى بلور

عينيها بالدموع على أن أتجرأ وأقول :

— بودى لو أن سيدتى تروح عن نفسها بعض الشىء ، فما هذه الصور التى تقرئين عنها إلا هياكل نسج خيوطها الخيال ، وصور معالمها العقل ، ثم نفخت فيها الألفاظ من روح معانيها ، فغدت صوراً إنسانية تتحرك أمام عيوننا .

ثم شجعتنى نظرتها إلى ، فواصلت حديثى :

— ثقى ياسيدتى أن أمثال : « سافو ، ومرجريت ، ومانون ليسكو ، ومن على شاكلتهن ، ماهن إلا بغايا لوثت الرذيلة قلوبهن ، وأماتت فيهن الشعور الإنسانى ، والخيال الخصب وحده هو الذى يصورهن لنا راهبات ، ويخلق منهن قديسات ، ويخلع عليهن تلك الصفات الموشاة بالعطف الذى يستدر الدموع من مآقينا .

قلت ذلك وصمت لحظة ، طوت خلالها الكتاب ، ورفعت إلى ، ورمقتنى بنظرة فاحصة أدامتها طويلا ، وزمت خلالها على شفتيها ، وزوت مابين حاجبيها كأنها تتفرس فى مخلوق جديد عينيها ، ثم انفجرت قائلة دون تريث :

— ولم لا يكون الخيال الخصب الذى تتحدث عنه هو الذى أملى عليك هذا القول ؟ .

ثم هزت رأسها وقالت : وإذا لم نسكب الدمع ياسيدى على المحرومات اللائى ينفق عليهن الجسد . . أنسكبه على اللائى يرفلن فى ثياب المال ، ثم يتجردن للرذيلة كلما جن الليل ؟ لست أدرى

أيها الرجال لماذا تسكبون الدموع عند أقدام المرأة وأنتم تخرجونها من الجنة ، ولا تسكبونه عليها وأنتم تلقون بها فى النار؟ .

ورأيت شبه عبرة حائرة تجول فى مآقيها ، ولكنها أخفتها خلف هدب طويل مسترخ وقالت :

— إن هذه النار التى وقودها شهواتكم ، والتى ألقيتم بالمرأة فيها دون تريث ، هى التى قلبت أوضاعها وغيرت معالمها ، وجعلت منها مخلوقا بلا جسد ، لقد أكلت هذه النار جسدها ، واتصلت بنفسها فأشعلتها ، لذلك هى جسد محترق ونفس تحترق . . . ثم غليتها تلك العبرة التى كانت تجول فى عينيها ، فانفرطت لؤلؤية على الخد الأسيل فبلورته .

وما إن قالت ذلك حتى شعرت بالخجل ، وأحسست بوحدتى تتجزأ ، ودبيب الخيبة يلقى بها متناثرة على جانبى ، وكأنها لحظت ذلك فحولت وجهها بعيداً عنى ، بيد أنى أعتذرت لها عن هذا الرأى الذى قلته لها ، وقلت إننى إنما أنتحلته لها لأروح عن نفسها التى لم تشعق هى عليها ، فقبلت هذا بأن أذنت لى بالجلوس على مائدتها ، ثم طلبت لى فنجانا من القهوة اتصل به حديثنا كما اتصلت به صداقتنا منذ هذا اليوم .

كانت من صفاء النفس ، ونقاء الطوية ، وسلامة السريرة بحيث أظهرتنى على دخيلتها ، وأفضت إلى بكل شىء . علمت منها أنها مدرسة فى إحدى المدارس الكبرى لم تشأ أن تسميها لى ، وأنها

وحيدة لا أهل لها فى الدنيا ولا صديق ، وأنها كانت زوجا لرجل من خيار الناس مات لسبع ليال خلت من زفافهما ، فترملت ، وأوقفت على ذكراه حبها ، وهذا سر وحدتها ومبعث كآبتها . وشجعنى إخلاصها الذى كنت ألمحه متألقا فى عينيها على أن أقرأ عليها أنا أيضا فى إخلاص صحيفة قلبى ، وهواجس نفسى ، فسرها أننا صنوان لوحدة ، وإخوان لهم ، وخدنان لحياة .

وألفت هذه الأشياء بين صداقتنا ، ووثقت عراها الغاية البريئة والقصد الخالص والضمير النبيل . واستطاعت أن تظهرنى على كل ما استخفى من نفسها ، فعرفت لأول مرة كيف يضيىء الطهر النفوس ، وتنيرها الفضيلة ، حتى تجعلها كأضواء السماء التى تنسكب على عيوننا ، فضاعف هذا من حبى ، وربط حياتى بحياتها ، وعرفت هى ذلك فاطمأنت إليه وأعطتنى أعز ما تملك . . أعطتنى قلبها راضية ، فأعطيتها قلبى وأنا من الرابحين .

ومكثنا بعد هذا التبادل ثلاثة شهور ، كانت هى أول مافزت به من الحياة ، وتكشفت لى فيها الحياة عن حقيقة كنت أجهلها ، هى ضرورة المرأة للرجل ، لذلك أزمعت فى نفسى أمراً ، وانتهزت فرصة دعوتها لى فى دارها للغداء يوماً ، وقدمت لها خاتماً من الماس الثمين معلناً به خطبتنا .

ولكنها لم تتناوله من يدى فى فرح كما كنت أظن ، بل أذهلها النبأ ، ونظرت إلى وجلة ، ثم قالت وهى تنكس رأسها وترتعد :

— وهل تقبلنى وقد نالنى قبلك رجل؟ . ـ ثم أردفت ـ إننى تعسة . . إننى أرمل . . إننى أحترق . . . . ثم انفجرت باكية ، وارتمت على مقعدها محمومة ترتعش ، وظلت كذلك إلى حين . وظللت بها حتى هدأت ثائرتها ، وجففت لها دموعها ، ثم تناولت يدها وعقدت عليها خطبتى ، وربطتها بقبلة أحسست هى بإخلاصها يتسرب إلى كل جارحة فيها .

ولم تمض سوى أيام حتى كنت قد هيأت لها عشاً جميلا أعطانيه صديق كريم كان قد ابتناه فى مزرعته فى الريف ، ثم وقعنا الوثيقة الرسمية ونقلتها إليه . ومن ثم أخذت أجلس قبالتها النهار كله أبتسم إلى عينيها وهى تنقل لى على أضواء نظراتهما السعادة إلى قلبى . . لقد علمتنى عيناها أن الحياة ليست مالا فقط . . وليست مجداً فقط . . وليست الصحة فيها هى كل شىء . وإنما الحياة العريضة المعبدة طرقاتها بورود الهناء وأزهار السعادة ، إنما هى فى يد امرأة جميلة تربت بها على كتفك وهى تهبك قلبها . تهبك السعادة التى هى نور يتسرب إلى قلب الرجل فيضيء جوانبه . وقد أوقف الله هذا النور على عيون الحسان ، ليحبين فيهن الرجال .

وعلى هذا مكثنا بعد الزواج خمسة أشهر ، لاشغل لنا إلا التجديف فى غدير الهناء بزورق الحب ، حتى يتراءى لنا أن نعرج على شاطىء الحياة فنأخذ منه ما نريد ، ثم نعود إلى تلك السويعات التى تعدل العمر فننتزعها انتزاعا من مخالب القدر ، ونروح نتقاذفها

وسط الغدير فرحين مهللين ، حتى يكتهل الليل ، ويلفنا بكسائه السنان فنهرع إلى فراشنا إلى أن يأتى الصباح ، فأتركها فى سريرها نائمة ، ثم أنصرف إلى الأسكندرية ، ولكن بعد أن أكون قد وضعت على شفتيها قبلة الصباح .

وحدث ذات يوم وأنا أتهيأ لركوب سيارتى مبكراً أن ناولنى طواف البريد رسالة باسمها عليها طابع إحدى الوزارات ، ففضتها ، وإذا بها من وزارة الشؤون الإجتماعية ، تشكر فيها « عطيات فهمى » على تنازلها عن تلك الهبة المالية التى كانت قد منحتها الوزارة للبغايا اللائى ألغى ترخيصهن .

ونظرت إلى محدثى ، ولكن تبلور الدموع المنسابة من عينيه جعلتنى لا أقوى على التطلع إليه ، فقد أثقل مرآها رأسى ، وأغمض عينى ، وهويت برأسى المحموم على ذراعى ، وألقيت بهما على الطاولة الملوثة برائحة النبيذ الرخيص ، ومكثت كذلك إلى حين ، وفجأة رفعت رأسى على صياح السكارى الذين أخذوا ينقرون على الطاولة التى أمامهم نقراً منتظماً ، راحت توقع عليه « جمالات » رقصتها المبتذلة .

والتفت إلى صاحبى ، ولكنى لم أجد إلا مقعداً خالياً . وزجاجة فارغة ، وكأساً بها ثمالة .

ترى هل ذهب . . . . . ؟

ترى هل كان يحدثنى إنسان ؟

رجل مسكين

كان صادق النية عند ما فكر فى الذهاب إلى مكتبه بعد الظهر، على غير عادته، لإنجاز أعماله المتراكمة، والتى تكدست أوراقها أمامه بشكل يلفت النظر ويدعو إلى الرثاء. لذلك عرف زوجته فى عبارة موجزة مقتضبة وهو يغادر الدار أنه ذاهب إلى مكتبه، وقد يمكث به إلى التاسعة مساء. ولكنه ما إن ذهب إلى مكتبه وجلس إليه، حتى كانت قد لحقت به تلك الهواجس السوداء الخبيثة التى تسلطت عليه، وتسربت فى أيامه هذه الأخيرة إلى وجدانه، فأثارته، وتألبت عليه، وظلت به حتى اجتثت كل ما عداها من تخيلات، ثم بقيت هى تلوح لعينيه فى ظلمة الخاطر المكتئب حقيقة مرة، ما إن يلمحها ماثلة حتى تتقد عيناه، وتتسع حدقتاهما، وتروحان ترميان بالنظر المهتاج، كأنه شواظ من نار..

إنه.. إنه ماذا... إنه يختنق، لا بل يحترق، ولكن ليست ألسنة النيران هذه التى تلفح جسده هى التى تؤذيه.. هى التى تأكله... هى التى تفرى عظامه.. وإنما الذى يأكل جسده أكلا ويفرى عظامه حتى ليجعلها تتطاير هباءً على ذؤابات النيران المندلعة فى قلبه. هو غيظه.. حقده، تبرمه... أذاه من تلك اليد التى أشعلت النار فى جسده، وأشعلتها خفية وفى الظلام حتى لا يراها..

إنه لو كان تمكن من رؤيتها وعرف صاحبها لهان الخطب ويسر، ولو إلى حد ما، أما أنه يختنق ولا يرى الحبل الذى أحكمت

خياته حول عنقه ، أما أنه يحرق ولا يرى الأنامل التى حكت الثقاب على جسده حتى اشتعل ، فهذا ما لا طاقة له به . . لا قدرة له على احتماله . . . فهو وإن كان قد أحب زوجه وأحبت غيره فهذه ليست باعثة الداء ، فهذه طبيعة المرأة . . . المرأة التى كانت نبت الوباء فى الجنة ، فقذف بها مع أبليس لتكون وإياه فى الأرض محط الرذيلة ومهبط الآثام . . . لذلك ليست جريرتها أنها خانته ، وإنما جريرته أنه أخلص لها الود . . . أنه أحبها . . . فهو لو لم يحبها لو لم يصطفيها ويتزوجها . . . لو لم يخلص لها ذلك الإخلاص الذى لم يخلصه لنفسه أو يسره لإنسان ، لما حدث من ذلك شىء . .

لذلك فهو لا تعنيه النار التى هيأ هشيمها بيديه ، وإنما تعنيه اليد التى أشعلتها . . . ترى لمن تكون هذه اليد ؟ . . ترى من يكون صاحبها ؟ ترى من يكون ذلك الذى بهرها عشقاً . . شغفها حباً ؟

أتراه الباشا رئيسه صاحب المنصب الرفيع والجاه العريض والحول والقوة ؟ وإلا لماذا أغدق عليه عطفه ، وخصه هو بحنانه فرقاه إلى الدرجة الرابعة . . . أليقربه إليه ؟ . . أليموه عليه ؟ . . أليجعل نقاب النقمة الملوثة الذى يعصب به عينيه يحول بينه وبين رؤية النسيج الأسود الذى صنع منه ذاك النقاب ؟ . . ولكن هل الباشا يعرفها ؟ هل رآها ؟ . . هل التقى بها يوماً . . ؟ . . . ولكن لماذا يكون هو بالذات . ولا يكون صديقه إسماعيل الذى يجلس معه فى مكتب واحد ، والذى لا شغل له إلا العناية بهندامه المنسق

الجميل ، وقوامه الفارع الرشيق ، وحواجبه السوداء المزججة ، والذى لا حديث له غير حديث الحسان ذوات العيون النجل التى تفتك ، والأهداب الوطف التى تقتل . والردف الثقيل الذى ينوء به الخصر الممروض الواهى ، كما يتبرم أحياناً الصدر العريض الناهد بالثدى النافر الأرعن . . .

وأشعل لفافته . . ولكن لماذا يكون هذا بالذات أو ذاك بالتحديد ؟ هل لا بد أن يكون عشيقها صاحب منصب وجاه ، أو ذو خبرة بشئون الحسان . إن المرأة إن لسعتها الشهوة جعلتها كالطائر الضال الذى أجهده طول التحليق فى تيه الصحراء ، فلا يعنيه إلا الفرع الذى يقيه لفحاتها ، سواء أكان ذلك الفرع بين أشواك السنط الشائكة ، أم بين أفواف الزهر الرطيب .

لماذا لا يكون هو ذلك الساعى النوبى الذى كلف بخدمته فى المكتب ، والذى من بلاهته كان يبعثه أحياناً إلى الدار . . .

أيكون هو . . هو ماذا . . . وما إن خطر له هذا الخاطر الأسود حتى صفع المكتب براحته صفعة أدمت أنامله ، وانتصب واقفاً وقد برقت عيناه واتسعت حدقتاهما ، وراحتا تلقيان بالنظر المهتاج كأنه شواظ من نار .

وحانت منه التفاتة وهو يذرع الغرفة بخطواته المجنونة ، فرأى من النافذة رجلا فى الشارع يتطلع إلى مبنى الديوان ، ويخص غرفة مكتبه بنظراته ، فلمعت عيناه وتمتمت شفتاه . . .

ما أتعسنى . . لقد ظلمت أولئك . . لقد اتهمتهم بالإجرام . وها هو المجرم . . ها هو ذاك . . لقد ظننتنى الحية الرقطاء أموه عليها ولم أذهب إلى المكتب كما عرفتها . لقد حسبتنى أترقبها وأدارى الخنجر الذى فى يدى بقفاز من حرير ، فبعثت به لتتأكد من وجودى فى المكتب ، حتى لا أفاجئها بالطعنة النجلاء . .

وأسرع فتناول طربوشه وراح يطوى الدرج فى خطواته ليراه . . ليعرفه . . ليتحقق منه ، ولكنه ما إن بلغ الطريق حتى وجده عابر سبيل ينتظر الترام مع أولاده الصغار . . فارتد خزيان ، ورجع خجلا .

وأخرج وهو يسير فى الطريق منديله ليجفف عرقه المتصبب . والحقيقة ليجفف دموعه المنسابة . . وكان قد بلغ محطة الرمل ، وكان فى حاجة إلى أن يشرب ، إلى أن يسكر . . إلى أن يملأ جوفه بشتى أنواع الكحول القاتلة . فقد ألف الخمر فى أيامه هذه السوداء ، فهى كثيراً ماتسكن أعصابه الثائرة وتخدر شعوره المهتاج ، وتسرى باردة فى جسده المشتعل فتطفىء لهيبه ولو إلى حين . فعرج على بار ـ تافرنا ـ الواقع فى ميدان محطة الرمل أمام موقف ترام فيكتوريا وطلب كأساً من الزبيب .

وكان الميدان غاصاً يموج بالعابرين كعادته عند الأصيل . . ورأى الناس تروح وتجىء فرحة مرحة مستبشرة . . .

ولكن لماذا لايكون هو . . هو من ؟ هو ذلك المأفون

المجهول . . ذلك الوغد السافل بين هؤلاء العابرين فيراه وهو فى جلسته هذه فيسخر منه ويرسل إليه بنظراته التهكمية القاتلة .

وبرقت عيناه واتسعت حدقتاهما ، وراحتا ترميان بالنظر المهتاج كأنه شواظ من نار .

وتناول طربوشه وأسرع داخلا ، وجلس خلف زجاج الباب الكبير بحيث يرى ولا يرى ، ومن ثم راح يسكر ولكن بشراهة .

وبعد حين هدهدت نشوة الخمر أعصابه المهتاجه ، فراح يفكر تفكيراً ظنه معتدلا ، وخاله مستقيما . . وحسبه منبعثاً من العقل الهادىء الرزين .

إنه لم يمسك عليها بقبضته . . ولم يترام إليه عنها مذمة ، مع أنه لو أمسك عليها واحدة لاتخذ منها سلاحاً جابهها به . . ولكن كل ما فى يده من أنصال . . هى أوهام . . هى شكوك . . ولكنها حقيقية ، وإن كانت ما تزال مخبأة فى جوف الليل خلف أسجاف الظلام ، وليس إلا أن تطلع الشمس فتبين . . .

زينتها . تجملها . عنايتها بنفسها . . إدامة تطلعها فى المرآه . . كثرة عنايتها بقوامها الفارع المياد . تلهفها على انتقاء فاخر الثياب . حرصها على غوالى العطور وصافى المساحيق . . ثم ثوبها . . ثوبها الجديد . . ثوبها الأزرق ذى الكرانيش البيضاء وأعشاش النمل الأرجوانية . . ثوبها الذى قضت فى حياكته حتى غدت فيه فتنة لكل عين ، ومرفأ لكل قلب . . أليس كل هذا مضافاً إليه جمالها .

جمالها المشبوب . . جمالها الجبار القاتل الذى كمنت خلفه أنوثتها الطائشة المعربدة . . أليس كل هذا يقوى على هتك أستار الظلام المختبئة خلفه الحقيقه . . الحقيقة المرة . . الحقيقة المدمرة . . . الحقيقة ال .. وانهمرت الدموع من عينيه ، وخجل من نفسه ومن الناس لو أبصروا به يبكى ، فأخرج منديله ، وأسرع يتجفف دموعه المنسابه . غير أن نظرة عارضة عرضت منه وهو يدارى وجهه خلف الزجاج ، فرأى شيئاً ، لا بل رأى أشياء ، ما إن وقع نظره عليها حتى اهتز فى جلسته مرتعداً مرتعباً كمن لسعته عقرب . .

لقد رآها . رأى هدى . رأى زوجه . رآها بثوبها الأزرق ذى الكرانيش البيضاء وأعشاش النمل الأرجوانيه . رآها خارجة من حلوانى فاروق المقابل للبار الذى يجلس فيه . . رآها خارجة تتأبط ذراع عشيقها الذى أجهده طول البحث عنه . . الذى هو صديقه . . الذى هو زميله . . الذى هو إسماعيل .

ولكنها لماذا تسرع الخطى . . لماذا تختبىء هكذا وتدفن رأسها فى كتفه . . أتكون قد رأته . . أم هى ذاهبة معه إلى مكان ما تود أن تخلص منه قبل التاسعة مساء .

وبرقت عيناه واتسعت حدقتاهما ، وراحتا ترميان بالنظر المهتاج كأنه شواظ من نار . .

وتناول طربوشه وانقذف يركض فى الطريق كالمجنون ، ولكنه ما إن تفادى ترام فيكتوريا الذى كان قدهم بالسير ، واخترق

الميدان ، حتى كانت قد ركبت تاكسى انطلق يعدو بهما فى طريق الكورنيش .

ومسه خبل فراح ينادى وهو يتلفت حواليه وسط الميدان كالمسعور : تاكسى . . تاكسى ، ولكن التكسات انقطعت جميعها فى تلك اللحظة المريرة السوداء . فانطلق هو يعدو من زقاق أثنيوس ، وما إن بلغ الكورنيش حتى رأى السيارة تلوح لعينيه من بعيد ، كالشعاع الخافت فى ليل الشتاء .

ووقف يلهث ويئن من فرط الإعياء . . أين يذهب . . وإلى أى ناحية يسير . ومر به تاكس ولكن بعد حين . فاستوقفه وألقى بجسده إلقاءاً فى قلبه . . ولكن إلى أين ، وطرأت عليه فكرة صائبة ، يذهب إلى الدار ، وهناك ينتظرها حتى إذا ماعادت تنوء تحت أدران الإثم الذى لوثت به جسدها وهى تتمرغ فى بؤرة الخطيئة ، ردها ثانية إلى المستنقع الذى كانت فيه ، ولكن بعد أن يكشف لها وللناس الغطاء عن ذلك الجسد الذى جعلت منه وعاء تلغ فيه الكلاب . .

وأقبل على الدار ، ورأى على بابها ابنه الوحيد الذى لا يعدل به الدنيا ، ورآه يلعب كعادته مع الأطفال ، ولكنه بدل أن يذهب إليه ويرفعه إلى صدره ويداعب شعره الأصفر اللامع وهو يقبله ، راح يرمقه من بعيد ويتأمله لأول مرة — وهاله وهو يتفرس فيه أن يرى فى ملامحه أشياء لم يكن قد رآها من قبل . . . أن جبهته

العريضة . . . أن عينيه الواسعتين — أن شعره الأصفر اللامع . . . أن كل شيء فيه كأنه صورة نقلت من . . . من . . . إنه ليس ابنه إنه ابن الجريمة . . . إنه ابن الإثم . . . إنه ابن الخطيئة التى نسجت المرأة خيوطها فى الظلام . . . إنه ابن اسماعيل . . .

وبرقت عيناه واتسعت حدقتاهما ، وراحتا ترميان بالنظر المهتاج كأنه شواظ من نار .

ورأى الطفل وجه أبيه المربد ، فأقبل عليه خائفاً يترقب ، ورفع ذراعيه ليحتضنه كما اعتاد ، ولكنه ما إن اقترب منه حتى ركله بقدمه ركلة قاسية ألقت به على الأرض صارخاً يئن ويتلوى . ثم تركه ودلف إلى الدار فألفى الخادم فبادرها بصوت كهدير البحر الهائج :

— متى خرجت سيدتك ؟

— لم تخرج ياسيدى ، إنها فى السرير تشكو صداعا حاداً من وقت خروجك .

فرفع يده الثقيلة وهوى بها على رأسها وهو يرغى ويزبد — حتى أنت — ثم تركها ودلف إلى مخدع زوجه متصلب شعرات الرأس كأنها الحراب المشهورة ، فألفاها نائمه وأمامها على الطاولة بجانب السرير كوبة من الشاى ، وكبسولة فارغة من الأسبرين . فوقف أمامها لحظات يتأملها وهو زائغ البصر قد ارتسمت على شفتيه المرتعشتين ابتسامة ساخرة ، لو أن زوجه كانت تعرف

شكوكه لفهمت كل ما يجول بخاطره .

وهمت أن تقول له شيئاً، ولكنه بادرها بصوت محموم لم تألفه وهو يتفرس فى عينيها : — أين كنت يا امرأة ؟

فذهلت واعتدلت فى جلستها ، وتمتمت وهى تعمل بأناملها الرقيقه فى ملاءة السرير :

— ماذا تقول ؟

— أقول لماذا عدت مسرعة ؟ لماذا لم تنعمى بأحضانه أكثر مما نعمت ؟ تكلمى . تكلمى : — واقترب منها خطوة — أأسرعت عائدة حتى لا أثقل عليك بأسئلتى حتى لا أضيق عليك قيدى ؟ ، إذا كان ذلك فبشراك أنك من اليوم طليقة من كل قيد ، فشأنك شأن اللواتى يحملن ترخيصاً بالدعارة .

وأقبل عليها مكفهر الوجه مربد السحنه ، متقلص العضلات يزوم ويزمجر كالحيوان المفترس . ورأته كذلك فراحت ترتعد وتتذرع حينا بالحائط ، وأحيانا بالدثر . ولكنه انقض عليها ، ولوى شعرها الطويل الفاحم المتهدل فى يده ، ثم قذف بها من على السرير فسقطت منطرحة على الأرض ، ثم وقف لحظه يتفرس فى جسدها الذى انحسر عنه الثوب فبدا عارياً من خلال غلالتها الرقيقة، والذى خيل إليه أن الخطيئة قد درنته بنقطها السوداء، فبدا له دميما مشوهاً . . . وغاظه ذلك فاقترب منها ثانية ، وجذبها إليه وقرب وجهها من عينيه الناريتين وهو يرتعد ، ولاح له جبينها الوضاء

أشد ظلاماً من عتمة الليل ، فبرقت عيناه ، واتسعت حدقتاهما ، وراحتا تلقيان بالنظر المهتاج كأنه شواظ من نار .

وهم أن يقذف بها ، ولكن قواه تراخت ، وتخاذلت ذراعاه فسقطت من بين يديه .

وما إن رآها متكومة تئن وتتوجع حتى انفلت يركض من الدار كالهارب ، وقد وضع يديه على عينه وهو ينتحب ويردد بصوت حبيس مسموع :

أنت طالق . . . أنت طالق . . . أنت طالق .

حتى توارى .

* * *

وفى اليوم الثانى بينما كانت العربة الثانية تسير بآخر بقايا متاع الزوجة المطلقة ، كان هو يسير فى شارع سعد زغلول فخوراً يترنم ، فالتقى فجأة بصديقه إسماعيل ، وكان يتأبط ذراع غانية البارحة صاحبه الثوب الأزرق ، ذى الكرانيش البيضاء ، وأعشاش النمل الأرجوانية ، والتى قدمها إليه وهو يقول :

— صديقتى حمدية التى كثيراً ماحدثتك عنها .

* * *

لقد كانت هذه هى العشيقة . أما الزوجة فكانت تبكى الزوج الذى جعلت منه الغيرة ثقاباً أشعله الخيال على مذبح الحب .

البلبل والحمامات السبع

كانت المدرسة تبعد عن القرية مسافة لا تقل عن كيلو مترين تقريباً . وكانت تقوم وحدها وسط حديقة عريضة من حدائق الريف الكبيرة ، تحدها من الجهات الأربع مزارع مترامية الأطراف . لذلك كانت تلوح لك المدرسة من بعيد فى غبش المساء كصومعة راهب فى صحراء قاحلة . وبالرغم من هذا فقد حرم على المدرسات السبع اللائى يشتغلن بها ، ومعهن الفراشة أيضاً ، أن يقفن فى باب ، أو يفتحن نافذة ، أو حتى يتريضن فى الحديقة إن أحبين ، إلا بعد أن يكون الليل قد لف الكون بكسائه الداكن الأسود ، حتى لا يرين أحداً أو يراهن أحد . وكانت هذه هى تعاليم حضرة الناظرة ، التى كانت تحكم بأمرها حكما قاسياً فى هذه الدويلة الصغيرة ، البعيدة كل البعد عن الناس والدنيا .

وعذر الناظرة فى ذلك أنها امرأة ، كأن الأيام حلت مشاكلها مع الزمن على حسابها : خلقة مشوهة دميمة ، وصوت أجش بغيض ، وعينان ضيقتان أكل الحقد أهدابهما ، ولم يبق منهما سوى نظرات نارية حادة لا تعكس مرئيات الأشياء على عينيها أبدا ، وإنما تعكس صفحة وجهها المشوه على خاطرها فتراه دائماً ، وتراه مقترناً بسلسلة تلك المصائب التى جرها عليها هذا القبح طيلة الأربعين سنة التى قضتها فى دنياها الشقية . وأيسر هذه المصائب عندها مصائب الزواج الذى نكبت فيه ، فقد تزوجت ثلاث مرات . الأولى أنصف الله

الزوج فاختاره لجواره قبل الزفاف ، والثانية دب الخلاف بين الزوجين وانتهى بالتفرقة قبل شهر العسل ، والثالثة مكر بها الشاب اللعين ، وبعث إليها بورقة الطلاق ، ولما يمض على الزواج شهران ، أضاعت خلالها المسائى جنيه التى كانت هى كل ما ادخرت من راتبها ومن حياتها المريرة الشاقة . ولذلك ما كانت لتفتح عينها إلا لترى هذا كله : وما إن تراه حتى تندلع شرارة حقدها ، وتروح تثور على كل شىء ، وتسخط على كل شىء ، حتى على فراشها الدافئ الوثير ، فكثيراً ما كانت تستيقظ فى الليل وتنفث كل همها فيه ، وتطوح به هنا وهناك بحجة أن الحشرات التى فى الدنيا جميعاً تآمرت عليها هى الأخرى لتحول بينها وبين النوم .

بيد أن هذه النار التى كانت تعتمل فى قلبها دائماً ، كانت تمر عليها لحظات تخبو فيها حتى لتكاد تتحول إلى رماد بذوره الاستسلام للواقع المرير ، ولكنها كانت أيضاً تعود فجأة ، وعلى غير انتظار ، إلى اندلاعها وتأججها حتى لتكاد تحرق جسدها وتحوله إلى ذرات تتطاير على ذؤابات النيران المندلعة من عينيها . وذلك عندما ترى بنفس هاتين العينين الفتيات السبع يخطرن أمامها فى تيه ودلال ، ويرفلن فى وشى الجمال الباهر الفاتن ، ويستمتعن بدفء الشباب الغض الذى تطفو حرارته على وجوههن ، فتحيل هاتيك الوجوه الغضة ، وتلك القسمات الحلوة ، إلى باقات جميلة مانعة : فيها الأحمر القانئ الذى بلون الدم ، وفيها الأبيض الناصع الذى يبهرك ،

وفيها الأسود الذى ضمخه السحر وأضفى عليه فتون الصبا جمال الوهن وحلو الهزال .

وتراهن أيضاً وهن جماعة ، يسرن فى خطى وئيدة متكسرة يوقعن أناشيد الأمل الحلو على أنغام الضحكات العذبة ، ويوقعن ألحان الأنوثة البكر على همسات الشعر المسترسل الذى يداعبه النسيم العليل ، فتثور ثائرتها ، وتنطلق إلى مخدعها باكية منتحبة ، يأكل الحقد قلبها ، ويفرى الغيظ عظمها ، وتمكث حيناً تبكى ما شاء لعينيها المحمرتين أن ينزفا من الدمع . ولذلك تمكث زمناً إلى أن يرجع الخيال الماكر الخبيث يعبث بها ، ويداعب رأسها المحترق ، فتجف دموعها ، وتهدىء من ثائرتها ، وتعود لتراهن عسى أن يكون القدر قد أحال جمالهن إلى قبحها ، وعسى أن يكون أيضاً ، وفى لحظة واحدة ، قد أحال شبابهن الغض إلى كهولتها البغيضة . . وتذهب فرحة تتحسس الخطى فى الليل ، حتى لا يشعرن بها فيوجهن إليها تلك النظرات التى كانت تنطلق معربدة من بين أجفان سكرى ، وأهداب حالمة فتقتلها قتلا ، وتعبث بكل جارحة فيها ، وتقف خلف النافذة ترقبهن من بعيد . ولكنها ما إن تبصر مخدعهن حتى ترأى عيناها من باهر النور الذى ينبعث من المخدع العذرى ، الذى أضفى عليه الطهر لوناً بصفاء السماء ، وفيه سبع عذارى مستلقيات شبه عاريات ، وكأنهن نجوم متناثرة ، يسبحن فى لجين الفجر حيناً ، ويغصن أحياناً فى الصفحة الرقراقة ، حتى لا يذوبهن الخجل من

طلعه الصبح المنور . وما إن ترى ذلك حتى ترتد وجلة مرتعدة مسرعة إلى مخدعها ، تخترق طريقها إليه ملتهبة الفؤاد كنجم يشق طريقه إلى الأرض وهو يحترق .

فكان لابد لها من حل يخلصها من هذا العذاب ، ففكرت وفكرت وطال بها التفكير ، وأخيراً اهتدت إلى حل ما إن تخيلته حتى استقبلته فرحة به ، مطمئنة إليه ، راضية عنه الرضا كله .

. . . لماذا لا تنغص عليهن حياتهن كما ينغصن عليها حياتها ؟ . لماذا لاتحرمهن حتى من طلعة الشمس كما حرم عليها القدر حتى الابتسامة العارضة ؟ لماذا لا تقطع عليهن سبل كل هذه السعادة التى يتمتعن بها ؟ وتكون هى اليقظة التى تبدد الحلم الجميل ؟ والتخمة التى تهيء أضغث الأحلام ؟ . وبذلك يثرن مثلما تثور ، ويغضبن مثلما تغضب ، وبذلك أيضاً يندبن حظهن العاثر مثلما تندب هى حظها المائل المنحرف عن حظوظ الناس .

وكان أن أصدرت أوامرها المشددة إليهن باتباع كل مامن شأنه أن يحول بينهن وبين اللذة البريئة أو الهدوء والرضا . أو يبعث حتى الاطمئنان إلى نفوسهن ، وذلك بحجة المحافظة على الأخلاق ، وحرصاً منها على اتباع تعاليم الدين القويم . فالأبواب يجب أن تظل موصدة ، والنوافذ لا تفتح ليل نهار ، والمرايل السوداء لا تنزع أبدا من على هاتيك الأجسام الغضة البضة إلا عند النوم ، والتزين والتبهرج هو من عمل الشيطان فليبتعدن عنه ، والحديقة

لا تطؤها أقدامهن إلا فى الثلث الأخير من الشهر العربى ليحجبهن الظلام عن العيون النهمة . والغسل والاستحمام يجب أن يكون بمقدار ، حرصاً على أموال الوزارة التى تستنزف فى جلب الماء من الخارج . حتى الحديث بصوت عال هو محرم ، أما الذئاب البشرية التى تأتى إلى هذا المكان المقدس بحجة دفع المصروفات المدرسية ، أو السؤال عن بعض الطالبات لاتطأ أقدامها ساحة المدرسة ، وإنما تنتظر فى الكشك الخشبى القائم فى طرف الحديقة حتى تذهب هى إليها ، وعلى الفراشة قبل المدرسات السبع اتباع كل هذه التعليمات بدقة ، وتنفيذها بكل احترام .

وكانت فترة انتقال قاسية على نفوسهن ، قاومن فيها هذه الحياة الجديدة بكل ماأوتين من قوة ، ولكنهن انهزمن فى النهاية شر هزيمة أمام جبروت الناظرة وغطرستها ، وكلما هممن أن يجددن المقاومة ، ويضعن خطة لهجوم جديد محكم تذكرن حادث حكمت التى ثارت مرة على الناظرة ، ورمتها بألفاظ جديدة على مسمعها ، وإن كان يحفظها قلبها . وكانت نتيجة ذلك أن رفع أمر حكمت إلى التفتيش ، وأصبح أمر فصلها موقوفا على كلمة تخرج من فم الناظرة ، ولم تخرج هذه الكلمة ،لأن المدرسات ، ومعهن الفراشة ، بللن يدها المقرورة المعروقة بالدموع الساخنة .

ومع مرور الأيام ألفت الفتيات هذه الحياة التى أماتت الفرح فى نفوسهن ، وقتلت البهجة فى قلوبهن ، وأحالتهن زهوراً ذابلة ،

وجعلتهن كآلات تتحرك بمحرك صناعى وضع زره الكهربائى فى يد الناظرة ، ورحن ينفذن تعليماتها بدقة ، لا رغبة منهن فى إرضائها ولكن تمشياً مع إرضاء نفوسهن التى ماتت وعافت الحياة والدنيا . فالحديقة لايذهبن إليها لافى الظلام ولا فى النور ، والمرايل السوداء غدون لاينزعنها عند النوم بل ينمن بها أغلب الليالى ، وغسل الوجه لاكل يوم وإنما كل أيام ، والحمام أصبحن لايدخلنه لاكل يوم ، ولا كل أيام ، بل لايدخلنه أبدا إلا إذا أحست إحداهن بألم طفيف فى البطن يعتريها فى يوم معين من أيام الشهر . والضحكات تلاشت وغدت لا بمقدار ولا بغير مقدار . حتى الهمسات انقلبت مع الأيام إلى صمت بميت .

وهكذا غدون بين عشية وضحاها ، بعد أن كن كنسمات الصباح يرففن على الحياة عطراً وشذى ، غدون كراهبات ذهبن إلى الدير ليكفرن عن الخطيئة الآثمة ، لا بالتعبد والتبتل ، وإنما بالتقشف وتعذيب الجسد ، كما ألفت الناظرة نفسها هذه الحياة واطمأنت إليها ، وعادت الابتسامة العريضة تداعب شفتيها المرتعشتين حينا ، وترتسم أحيانا على جبهتها العريضة المترهلة .

ومكثن كذلك أياماً إلى أن حدث ذات يوم أن كسرت ماسورة المياه فى المدرسة ، وأبرقت الناظرة إلى التفتيش فأرسل إليها مع الظهر بأحد العمال ليصلحها ويعيد المياه إلى مجاريها .

وأسقط فى يد الناظرة عند ما أنبأتها الفراشة أن التفتيش قد

أرسل فعلا عاملا من العمال ليصلح الماسورة المكسورة . ولكنها بعد تفكير ولأى سمحت مرغمة لذئب من الذئاب البشرية أن يدخل المدرسة ، وأن يرى المدرسات السبع ويرينه ، وأقبل العامل وكان فتى فى الثامنة عشرة من عمره تلوح فتوته وقوته من خلال ثوبه الرث وقميصه الملوث ، الذى أحالت لونه إلى عدة ألوان مختلفه باهته نقط الزيت التى سرت عليه ، وحرارة نار « الكور » التى لفحته . وكان رغم زيه هذا الرث البالى معنى بنفسه عناية فائقة ، كأنه أبى أن يجعل جمال خلقته يندثر فى أوساخ مهنته ، فشعره اللامع المسترسل قد صففه على طريقة جميلة . وعيونه الواسعة تلحظ عنايته بها من نظافتها وتبلور نظراتها ، ووجهه المشرق الضاحك ترى جمال تقاسيمه وقوة تأثيرها من خلال بشرته الغضة اللامعة التى تقطر شبابا وفتوة ، وعوده الفارغ الممشوق تلوح لك الحياة الزاخرة فيه من خلال ساعده الملتف ، وعضلاته القوية ، وصدره العريض المشرئب .

ولذلك ما إن أقبل على المدرسة وأبصرت به الفتيات السبع ، حتى سرت فيهن رعدة جارفه هزت جسومهن ، وعقدت ألسنتهن . وكأنهن شعرن فجأة بالظمأ الذى عانينه فى أيام الجفاف الطويلة ، فرحن يلتهمنه بعيونهن التهاما ، ويشرحن له وطأته ، ولكن بنظرات انعقد من حرارتها ولباقتها . وأسرعن إليه فرحات مهرولات ، وما إن اقتربن منه حتى أحسسن بشىء ينقصهن ، فارتددن مسرعات

إلى المخدع العذرى ، ورحن يبحثن فى الدواليب عن ثياب جديدة عفى عليها الزمن فارتدينها . وبحثن أيضاً عن وجوههن فألفينها ما زالت كما هى ، وإن كان قد قتلها الشوق إلى الزينة فرحن يبحثن عن أدواتها ، ولما أجهدهن البحث عنها استلفت حكمت من فكرية أصبع الأحمر القانىء ، ونعيمة من زينات علبه الأبيض الخفيف ، وفاطمة من سميرة زجاجة العطر التى لم تفتح منذ شهور . ثم لما كملت زينتهن ارتددن إليه ، والتففن حوله يسألنه حيناً عن الماسورة المكسورة ، والمدة اللازمة لإصلاحها ، وحيناً عن الدنيا فى الخارج ، وهل هى ما زالت بخير . وهل فيها الكثير من أمثاله والكثيرات من أمثالهن ؛ ثم يسألنه غير ذلك أسئلة هن أنفسهن لا يعرفن لها معنى . كل ذلك وهو يجيبهن إجابات متقطعة حيناً ، وحيناً ينشغل عنهن بالعرق المتصبب من جبينه ، وبالوابور الذى يرسل النار من يده إلى الماسورة فيصهرها .

وفجأة أطفىء الوابور ، وجفف العامل عرقه المتصبب ، فأسقط فى أيديهن ، ونظرن إلى بعضهن ساهمات زائغات . ولكن إحداهن ، وهى زينات ، نظرت إليهن نظرة ذات معنى ، ثم اختفت حيناً وعادت تهمس إليهن ببعض كلمات انطلقت على أثرها وجوههن تفيض بالبشر والرضا ، وتقدمت إحداهن منه وأنبأته وهو يجمع أدواته ويضعها فى صندوقه الخشبى ، الذى اعتاد أن يحمله دائماً على كتفه ، أن ماسورة المياه الخارجية الموصلة من الصهريج

للداخل كسرت هى الأخرى ، ولكن بالقضاء والقدر .

وتقطب جبين الفتى المنهوك ، واربدت ملامحه ، ولا سيما عند ما عرف أن إصلاح هذه الماسورة سوف يستغرق منه وقتاً طويلا ، والليل قد أقبل أو هو على وشك الإقبال . وهنا تضاعف فرحهن ، ورحن فى نشوة يقبلن زينات الماكرة التى كانت هى القضاء الذى كسر الماسورة .

وانتهى الفتى من إصلاح الماسورة الثانية ، ولكن بعد أن أقبل الليل وانقطعت المواصلات ، وأصبح لزاما عليه أن يبيت فى هذه المدرسة النائية . ولكن أين يبيت ؟ وفكرت الناظرة فى هذا الخطب الجليل الذى ألم بالمدرسة هذه الليلة ، بيد أنها اهتدت أخيرا إلى حل موفق ، وأصدرت أوامرها بأن تهيأ « للسمكرى » منامته فى الكشك الخشبى القائم فى طرف الحديقة .

وذهب الفتى إلى الكشك راضيا عنه وعن منامته التى أعدت له ، وكانت عبارة عن غطاء من الصوف الخشن عليه أن يفرشه أو يلتحفه إن أراد .

وأغلقت أبواب المدرسة ونوافذها بإحكام ، لأن الناظرة مرت عليها وتفقدتها قبل أن تنام ، ولما تفقدت أيضاً مخدع الفتيات السبع ورأتهن مستغرقات فى نوم عميق ذهبت إلى مخدعها مطمئنة . ولكن الفتيات الخبيثات قد غررن بها ، لأنهن ما إن تأكدن من ذهابها إلى مخدعها حتى قمن خلسة وفتحن النافذة ، وما إن فتحت

النافذة المطلة على الحديقة المترامية حتى رأين منظراً رائعاً أثار أنوثتهن ، وأعاد إليهن الشباب الثائر الفائر ، الذى كانت قد ثلجته حياة الرهبنة والتقشف التى فرضت عليهن ، فقد رأين القمر وهو فى لحظة من لحظات إشراقه يداعب بضحكاته المتبلورة الحديقة الوسنانة ، التى راحت تتطلع إليه وكأنها عروس فى مخدعها ترنو إليه فى خجل يزيدة تعلقاً بها ، ويروح يصب عليها أحلى ابتساماته التى تنعكس على ورودها المتفتحه فتحيلها إلى شبه نجوم تلمع ضاحكة .

ورأين كذلك الكشك الخشبى القائم فى طرفها تحف به بعض شجيرات الليمون الوارفة ، وهو قائم فى وسطها يتطلع هو الآخر إلى السماء ويداعبها ، ولكن فى ابتسامة تختلف عن تلك التى يداعب بها القمر الضاحك الورود المتفتحة .

وأمعن النظر فيه ، فى الكشك ، وفى الشجيرات التى حوله ، وفى البلبل الذى أوى إليه هذه الليلة ، والذى لم ينم بعد لأن الباب لم يزل بعد مفتوحا .

ونظرت زينات إليهن فرأت وجوههن مخضبه .. ونظر الكل إلى زينات فرأين وجهها يكاد يقطر دماً .

وتقدمت حكمت ، من الباب ، ففتحته . .

وانطلقت فكريه ، ولكن إلى مخدع الناظرة ، واستيقنت من غلق بابه .

وعادت زينات تنظر إليهن .

وعاد الكل ينظرن إلى زينات .

وأسبلت زينات هدبيها فى خفر جم ورد خديها . . ومن ثم نظرت إلى الباب .

وانطلقت الحمامات السبع بعضهن إثر بعض ، يتمايلن فى غلالات بيضاء رقيقة ، كشفت عن الصدر ، ولم تبلغ أعلى الساقين حتى بلغن طريق الكشك فعرجن عليه ، يخطرن على مهل مترنحات الأعطاف .

وبيناهن على خطوات من عش البلبل فوجئن بالناظرة خارجة من الكشك . تنظر إليهن مرتعدة والدموع تسيل من عينيها .

واحده هى التى كانت فى إحدى نوافذ المدرسة تنظر إلى الحمامات السبع ، وهى تتفرق وجلة منذعرة ، وتضحك ملء شدقيها : تلك هى الفراشة التى كانت قد سبقتهن وقدمت للبلبل عشاءه ، وعادت منذ ساعات .

هتافُ الجماهيرْ

ضاقت ذرعاً بالمضجع النابى ، وأشفقت على عينيها اللتين أطفأهما السهد فتلمستهما ببنانها الذابل المرتجف ، ثم حسرت عنها غطاءها فى ضيق وحزن أمضها طيلة ثلاث ليال كانت على نفسها أطول من الثمانية عشر عاماً التى ساختها من العمر . واعتدلت فى الظلام على حافة سريرها الضخم الذى ملأ ثلاثة أرباع مخدعها ، ودلت ساقيها إلى الأرض ، فارتكزت عليهما بذراعيها ، ثم حملت رأسها المحموم على راحتين لا يعلم إلا الله وهى ما يعانيان من رعشه واضطراب . وأسبلت عينيها ، وأخذت تعيد فى صمت ، وللمرة العشرين ، قراءة تلك الرسالة التى قطعت كل صلة بينها وبين الحياة ، والتى جاءتها منه ، منذ ثلاثة أيام ، سراً كما كانت تجيئها رسائلها منه سراً ، والتى تختلف عن كل ما جاءها منه من رسائل . وعما كانت تأمل أن يجيئها منه من رسائل .

لقد أنبأها فى هذه الرسالة ، أو فى سطورها الأربعة ، أنه لأمر خارج عن طوق إرادته يقطع صلته بها ، وينفض يده من خطبتها التى كانت سراً بينهما ، وأنه يأسف لهذه القطيعة أسفه على عدم تمكنه من رؤيتها قبل رحيله المفاجىء عن المدينة لتسلم مقاليد منصبه الجديد ، الذى يجب أن يهتم به ، ويفضله مبدئياً على الزواج ورددت شفتاها المصفرتان المضطربتان هذه الكلمات ، ورددت أيضاً تلك الجملة التى جاءت على الهامش بعد التوقيع : « وإن تكن لى رغبات فأولها أن أسمع عنك كل ما يسرنى وكل ما يسر الرجل

المخلص (للآنسة) التى أتاحت له أن يقضى معها أسعد اللحظات.

ولم ينس أن يذيل هذه الجملة أيضاً بالتوقيع الذى ذيل به الرسالة — صديقك المخلص : سالم حمدى .

ولكن هذه الآنسة التى يشير إليها ، والتى وضع لفظها بين قوسين لم تكن كذلك الآن ، لقد وثقت به واطمأنت إلى وعوده، وإلى أحضانه أيضاً ، فأتاحت له أشياء . وأتاح لها (أشياء) . أتاحت له تلك اللحظات التى يعترف فيها بسعادتها ، وأتاح لها تلك الليالى الثلاث السود التى تلمس شقاءها . أتاحت له لذة الظفر ، وأتاح لها . . . خيبة الأمل !! وأى خيبة تتعاظم وتعلو مفرق فتاة تدعى آنسة وهى امرأة . . . وتعرف بعذراء ، وبوادر الأمومة تلوح لأحشائها . أى خيبة هذه ، وأى هوة يرديها فيها بيديه .

ولكن أيقبل هوهذا ؟أيرضاه . أيطمئن إليه . . ؟ إنه شريف.. إنه نبيل . . إنه ابن لأحد البشوات الذين نجهلهم . . وننزلهم من نفوسنا أسمى منزلة . . إنه . . . . فهل يكون كذلك ؟ . وهل ترضى أنامله الذى تخط هذه الرسالة ؟ وهلا تكفى وحدها أن ترغمه على الوفاء بالعهد وتحقيق الوعد .

وكفكفت عبراتها . . وتمتمت شفتاها : « قد يكون ذلك يا سميرة . . ولكن بعد أن يذاع أمرك بين الناس ، وتموت أمك حزناً على فجيعتك ، وحسرة على نقيصتك . بعد أن يتوارى أبوك خجلا ، ويتلاشى اسمه الكبير المحترم الذى تردده الصحف صباح مساء بين المرشحين للوزارة ، بعد أن ينهار كيان أسرتك ، ويدك

صرحها أقدام الناس الذين لا يفرقون بين الظالم والمظلوم . . . بين الغالب والمغلوب . . . بين الرجل والمرأة .

ولولا ذلك لما بعث إليك بهذه الرسالة . . لما أغمد هذا الخنجر فى صدرك . . لما خيرت بين الموت الدنيوى والموت الأبدى .

وانفجرت باكية ثم أصغت : سميرة ! سميرة ! إذا أردت لهذه الأسرة أن ترى الشمس ، فعليك بكهوف الجبال . . . وإذا أردت لها الحياة فعليك بالموت .

. . و . . ودقت الساعة ثلاث دقات كبيرة فى جوف الليل . فانتفضت فى جلستها ، وعلمت أنها حقيقة تقلبها ، لا أوهام تتخيلها ، فتتابعت دقات قلبها .

وقامت متثاقلة معتمدة على عمود سريرها الفضى ، والتصقت به ، ولفت ذراعيها عليه ، كأنها تحتمى فيه أو تناجيه . ثم استرسلت فى بكاء أخرس ، وعبرات بكماء انفرطت لؤلؤية على صفحة الخد الأسيل . ! !

وظلت كذلك إلى حين ، ثم مدت يدها وحسرت الستر الحريرى الفاصل بين السرير والحائط ، وكفكفت عبراتها وجففت عينيها . ثم ارتفقت النافذة وأطلت منها على الليل الساجى والكون الشامل ، والأمل الغريق فى سراب الحياة . . . وحانت منها التفاتة إلى الليل الرابض تحت أقدام قصرها ، وطالعها طويلا عريضاً . ولكنها رأته هادئا ساكنا مطمئنا كأن لم يحدث فى الوجود شىء ما ،

وكأن عذراء لم تفجع فى عرضها ، وكأن جنينا يهيأ للوجود ولم ينكره أبوه .

ونظرت إلى عرض النيل فوجدته شاسعاً . وبعثت بطرفها المحزون إلى طوله فلم تبلغه ثم أنفذته إلى قاعه فرأته رحباً فسيحاً يسع الألوف من الناس . فاطمأنت . وانفرجت أساريرها عن ابتسامة حلوة فتنت النهر ، وانتشت لها صفحته الرقراقه . وكأنها أسرت إلى البحر أشياء ، وكأن البحر أسر إليها أشياء . وكأنهما انتهيا إلى ميعاد فأغلقت النافذة فى هدوء . وعلى غير وعى منها نزعت (بيجامتها) الوردية الرقيقة ، وارتدت ثوبا أسود اللون ، تناسب دكنته اللثام الذى تلثمت به . ثم لما اطمأنت إلى حشمة زيها الذى ستستقبل به عالمها المجهول . نظرت إلى مخدعها المنسق الجميل . وألقت نظرة عجلى عليه . وحانت منها التفاتة إلى علبة حليها الكبيرة ، وثيابها الجمة الثمينه ، فرنت إليها ثم أغمضت عينيها ، وودعتها فى صمت ، وأغلقت عليها الدولاب فى هدوء ، ودلفت تتحسس الخطى .

ورأت فى طريقها باب مخدع أبويها مفتوحا ، فهلع قلبها وتعالى خفقانه ، ولكنها هدأت عند ما رأتهما نائمين ، فوقفت حيالهما لحظة ، وألقت عليهما نظرة ، ثم تركتهما مطمئنة إلى الثمن الذى ستدفعه . وذهبت إلى الغرفة المجاورة : وعالجت بابها فى رفق حتى استقام لها . فرأت أخويها الصغيرين مستغرقين فى نوم هادىء لذيذ ، وقد أضفت عليهما براءة الطفولة وطهرها شيئاً من الرهبة

التى تستشعرها بين يدى الله ، فلم تقربهما ، ولكنها انحنت على سريرهما ، وركعت أمامهما . . وخشيت أن تلوث هذا الطهر إن هى قبلتهما ، أو حتى لامستهما ، فدفنت رأسها المحموم فى فراشهما الوثير ، وبكت فراقهما صامتة ، وسألت لهما حظاً يختلف كثيراً عن حظها ثم ردت عليهما الباب وهى تسحب خيوط نظراتها رويداً من على وجهيهما ، وانطلقت إلى الشارع .

واستقبلها النيل فرحاً بها مبتسماً لها ، فابتسمت هى الأخرى له ، ولكن زادت قائلة :

« سألقاك . ولكن بعيداً . . بعيداً جداً . . حتى لا يتعرف علىّ أحد إذا لفظتنى أنت الآخر ولم تكرم وفادتى . .

ومن ثم سارت فى الطريق تضرب على غير هدى ، وكلما طالعت شبحاً بعيداً فى الظلام ذهبت إليه وداته ، وتبينته ظناً منها أنه هو يسعى إليها ليسترد رسالته ، ويقول لها إنها كانت دعابة سخيفة ، ويستغفر عن سخافتها ، ولكنها لم تجد إلا أشباح الأعمدة الصلبة التى أقيمت على جنبات الطريق ، توصل للناس برقهم أو نورهم .

وظلت كذلك إلى أن وقفت أمام مبنى جميل ، كثيراً ماقادها إليه . وكثيراً ماجلست معه فيه ينسجان خيوط الآمال والأحلام ويهيئان من غرفاته مايتيح للبلبل الغريد أن يرجع أعذب الألحان وهمت أن تدخله كعادتها ولكنها رأت بابة الفولاذى موصداً بسلسلة حديدية طويلة ، كأنها حية رقطاء تحميه ، وهمت أن تنظر

إليها وتعالجها. ولكن شغلتها عنها تلك الورقة السميكة التى علقت على جانبه، وكتب عليها بأحرف كبيرة (للإيجار). نظرت إلى هذه الورقة وددت كل حرف فيها مرات، ثم انصرفت عنها تجفف عبراتها.

وبينما كان قطار (الفجر) يفرغ على أفريز المحطة الكبيرة ركابه العديدين الذين اكتظ بهم دهليزها الرحب الفسيح، كانت هى تتطلع إلى لوحة كبيرة معلقة، وتتفرس فى أسماء المحطات، وتدقق فى الأسماء التى لم تكن قد سمعت عنها من قبل، ثم اختارت من بينها اسماً.

وبينما كانت أمها فى طريقها لتسألها سر أرقها طول الليل، كانت هى فى القطار السريع تقطع الفراسخ، وتطوى الأميال، فى طريقها إلى العالم المجهول..

ووقف بها القطار فى محطة قبل التى تنتهى إليها تذكرتها، فنزلت فيها، لأنها وجدت النيل يستقبلها هناك فى وقت متأخر من الليل، غفلت فيه عن الرقيب.

وانحدرت من المحطة، وحاذت النيل، مغمضة العينين خشية أن تخيفها أشباح الليل فتثنيها عن العزم الصادق الأكيد، ووقفت على صخرة جاثمة فوق منحدر الشاطىء، ثم فتحت عينيها.

وكأن السماء صاحت بالأرض أن نكسى أعلامك. وأوقفى دورانك إجلالا لرهبة الموت، واحتراماً لرغبة مظلوم، فنام القمر على صفحة اليم مستسلماً مستكيناً، وتضاءل النسيم وتوارى خلف

الأفق، ونكس الشجر أغصانه، وكتم أنفاسه حتى لا يبدى حراكه، والنيل أخذته سنة من الكرى فنام متثائباً عند أقدام الشجر، وخدود الصخر.

وبحركة هادئة ألقت عن جسدها الوشاح الأسود، وسقطت خيوط القمر الفضية على جسم بدا عارياً إلا من غلالة رقيقة بيضاء ووجه جميل تمشت منه سحابة دكناء، وعينين دعجاوين ينظران فى هدوء إلى السماء. وانفرجت الشفتان المرتجفتان عن آهة طويلة ردد صداها الحزين الكون الوسنان. وبعد خطوة ثابتة هوى الجسد الحزين البض إلى قاع اليم!

وتوارى البدر وراء سحابة سوداء، وانطلق النسيم صارخاً كشيطان أرداه نيزك من السماء. واستيقظت الأشجار هائجة على أغصانها، وثارت ثائرة النهر الخضم، وهاج هائجة، وكشف عن سريرته فأرغى وأزبد، وما لبث أن قذف بها فوق صفحته، فأرسل الله لها ساعداً قوياً.

وأفاقت فى ضحى اليوم الثانى من إغفائها الطويل، فوجدت نفسها على فراش من القش ملفوفة بغطاء سميك من الصوف الخشن، وأجالت عينيها فى أطراف الكوخ المتهدم الذى احتواها، فلمحت فى الجانب الآخر شيخاً مسترسل اللحية، مغضن الوجه مترهل الجبين العريض، الذى انبسط فوق عينين صغيرتين نفاذتين. وقد شمر عن ساعديه وهو دائب العمل فى شبكته، فأغمضت عينيها،

ثم عادت ففتحتهما ، فكانت حقيقة . فأسلمت أمرها لله ، وأفضت إلى الشيخ بكل ما كان من أمرها . وقص عليها هو كيف انتشلها من الماء وهو يجوب البحر بقارب صيده ، وحملها إلى كوخه . ومضت لحظة قطع الشيخ فيها حبلا طويلا أوصله بأطراف إبرته الكبيرة ثم قال :

ـ والآن أظنهم يبحثون عنك ، فهل أبرق إليهم ؟

فانتفضت مذعورة ، ودانته متوسلة ولثمت يده الراعشة وقالت :

ـ هل سيلفظني صدرك أيضاً ، وتقذف بي أنت الآخر ؟

ـ وفكر الشيخ قليلا ، ولمعت عيناها الهرمتان ، ثم تبللتا بدمعة طاهرة ، جالت ثم انسكبت على خده ، وقال :

ولكنك لا تستطيعين أن تحيي معي حياتي هذي الخشنة .

وأشار مبتسما إلى شبكته ، وكوخه ، ومكتل من سعف النخيل ، به بقايا من خبز قديم متكسر . فنظرت إليه باكية ، وهي تتأمل آمالها المتوارية خلف جبينه العريض المتغضن .

وقالت :

ـ في هذا كله آمالي .

وزمت على شفتيها ، وزم على شفتيه ، واتصل الصمت بينهما ولكنها أعادت النظر إليه وأدامته ، ثم قالت بعد حين :

ـ ولكن إذا قبلتني ، هل تقبل الخطيئة ؟

فابتسم الشيخ وقال وهو يجمع حبال شبكته : وإذا لم يواس المظلوم أخاه ، أيواسيه ظالمه ؟

وإذا لم يكفر الفقراء عن خطايا الأغنياء ، أيكفر عنها مرتكبوها ؟ .

ثم قال : لقد كانت لى ابنة ، هى كل مابقى لى فى الحياة ، غرقت فى اليم ومضت . فلتكونى أنت ابنتى .

ومضت سبع سنوات قضتها فى صومعة الصياد تغسل خطيئتها بالدموع ، وتكفر عنها بالاستسلام المرسل للعلة الفتاكة التى لازمتها ، وحرمتها سبع سنوات رؤية الشمس ، ومبارحتها المكان الذى أفاقت من غشيتها فرأت نفسها فيه ، ومضت سبع سنوات لم يدخل عليها فى كهفها المظلم سوى الشيخ بساعده المرتعش ، وساقه المهتزة ، وقلبه الكبير ، فيسألها أشياء ، وتسأله أشياء ، ثم يدعو لها وينصرف! وتدعو له وتذرف الدمع السخين!

وصى فى السابعة من عمرة يقضى معها الليل نائماً أحياناً ، وأخرى ساهراً يعد بجوارها ماجمع طول اليوم من أعقاب اللفائف ، أو يرتق بيده ما انفتق من ثوبه البالى المهلهل . وهو ينظر إليها ، وكلما ثقلت عليها العلة وتلوت فى فراشها البالى تمتمت شفتاه (أماه) وهى تنظر إليه ، وكلما رتق فتقاً فى الثوب انشق آخر ، تمتمت (ابناه) حتى يطل عليهما الصباح كما يطل تماماً على سكان القصور فيدخل عليهما الشيخ ، ويناول الصبى أعز ما يملك ، وماذا يملك

الشيخ غير كسرة من الخبز المقدد والملح الخشن ، فيتناولها الصبي فرحاً بها ، مبتسما لها ، مقبلا يد متصدقها مرات ، ثم ينصرف ولا يعود إلا عندما يحول الظلام بين عينيه والأعقاب المتوارية. ثم عاد ذات ليلة وكان فرحاً ، مرحاً ،متهللا على غير عادته ، وأقبل على أمه وقبل ثغرها المهموم المقرور ، ويدها النائمة على الأرض بلا أى حركة ، وقال :

غدا ستذبح الشاة والأبقار ، وتوزع الصدقات . وسنأكل لحماً كثيراً يا أماه . غداً سيزور مرشح الدائرة البلد وتولم له الولائم الكبيرة التى سيصيبنا بقايا طعامها الحلو اللذيذ .

فرفعت الأم رأسها إليه ، وألقت براحتها المنهوكة على رأسه ، وتطلعت إلى عينيه ثم تمتمت وقالت :

— أتشتهى اللحم يابنى ؟ .

فقال الصبي جاداً : إنه لذيذ يا أماه . أتذكرين يوم أكلناه فى وليمة المرشح السابق ؟

وتراخى ساعد الأم ، وسقطت عن رأس الصبي ، وأدارت وجهها ، ودارته بغطائها البالى ، وواصلت نحيبها الصامت ، بينما راح الصبي يعد أعقاب لفائفه ، وهو يتلمظ ويتغنى بوليمة الغد وفرغ من عد ماكان فى علبته الصفيح الصغيرة :ووضع يده فى جيبه ليخرج مابها ، فعثر على (منشور انتخابى) حدد فيه موعد الحفلة ، وكذلك توزيع الصدقات :

فالتفت إلى أمه فرحا وقال : — أنت لاتصدقين . انظرى هاهو الإعلان . اقرأيه . اقرأيه لى —

وتناولت منه المنشور الكبير ، وقرأت فيه بالخط العريض . انتخبوا الرجل الغيور (سعادة سالم بك حمدى)

ورأرأت عيناها وزوت مابينهما ، وقلبت دهشتها وضع الحروف فلم تنطق الاسم صحيحاً . فألقت عنها غطاءها الخشن ، واعتدلت فى جلستها قليلا ، وعركت عينيها وجففت دمعهما . ثم قربت منها المصباح الخافت وقرأت الاسم مرات . وظلت تقرأه حتى استقامت معها حروفه . ونطقته كاملا . وفهمته صحيحاً . فانفلتت من شفتيها آهة محزونة انطفأ لها المصباح الخافت ، ورن صداها الحزين فى أرجاء الكوخ المتهدم ، واهتز جسدها المريض هزات متواليات ، وتصلبت أناملها على المنشور . وسمرت عينيها فى أحرف الاسم الذى أخذت تردده فى الظلام . ثم تفرست فيه وأدامت النظر ، ورأت صاحب الاسم بوجهه الذى تعرفه ، وزيه الجميل ، يخطب فى الناس تحفه العظمة ، وتحوطه الهيبة ، وتشرئب له الأعناق . ثم رأت خلف السرادق الكبير الذى احتشدت فيه ألوف الناس صبياً صغيراً عارى الرأس ، مشعث الشعر ، ممزق الثوب . قد جمع بيده المهتزة طرفا ثوبه المهلهل على جسده ، وهو يتطلع بعينين أكلهما الصديد إلى لفافة فى يد رجل ، ويترقب قذفها ليتلقفها ككلب قبع أمام سيده الذى يأكل .

وتلاشت هذه الصورة على أثر هزة مفاجئة انتابتها ، فأرعشت الأنامل ، وخلصت منهما الورقة التى سقطت على الأرض ، وهوى فوقها رأس ثقيل — وتلمس الصبى أمه فوجدها ، ولكن جثة هامدة .

وفى قيلولة اليوم الثانى وقت الظهيرة ، كان نعش محمولا على أعناق أربعة من الفقراء ، يرون فى حمل الموتى خير صدقة يتصدق بها الفقير ، وكانوا هم كل من سار فى الجنازة .

وبينما هم فى طريقهم إلى المقبرة البعيده ، قابلهم رتل من السيارات يحمل عددا غفيراً من الناس ، تخفق على رءوسهم البنود والأعلام ، وتتقدمهم سيارة فخمة نثرت على جوانبها الورود والأزهار ، وعقد فوقها قوس النصر مصنوعا من سعف النخيل ، وفى وسطها جلس مرشح الدائره الجديد .

ووقف الموكب حتى مرت الجنازة ، ولفت نظر سعادة المحتفل به أن شيخاً يتبع النعش باكيا ، ويحمل على صدره المكدود طفلا يولول وينتحب ، فاستوقفه وسأله عن سر بكاء الصبى وانتحابه ، فأشار الشيخ بيده الواهية المرتعشة إلى النعش البعيد وقال :

— إن أمه قد ماتت .

فنظر البك إلى الصبى المنتحب ، والشيخ الباكى ، ثم نظر إلى الناس ، ولما تحقق من أن عيونهم مصوبة إليه ، أخرج حافظته وناول الصبى جنيهاً .

وإذا بهتاف الجماهير يشق عنان السماء : يحيا رجل الإحسان ! ! يحيا رجل الإحسان . . .

تفضل صديق الفنان حسين بدوى بوضع صورة الغلاف والأستاذ بدوى غنى عن التعريف ، فقد سبق وعرف عنه فنه ، الذى يمتاز بعمق الفكرة وإبراز المعنى ودقة التصوير .

DATE DUE

892.73:G421
لجنة النشر للجامعيين
هتاف الجماهير
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037956

American University of Beirut

3
A

General Library